الفصل الثلاثون

عبقرية الإسلام

١٢٥٨ – ١٥٢٠

صمد العالم الإسلامى من ١٠٩٥ إلى ١٢٩١ أمام سلسلة من الحملات الدينية العنيفة ، مثل تلك الحملات الدينية العنيفة التى أخضع بها فيما بعد البلقان ، وحول ألفاً من الكنائس إلى مساجد . ودفعت سبع حملات صليبية حث عليها اثنا عشر من البابوات ، نقول دفعت بملوك أوربا وفرسانها ورعاعها ضد قلاع المسلمين فى آسيا الصغرى وســـوريا وفلسطين ومصر وتونس . وعلى الرغم من إخفاق هذه الهجمات آخر الأمر ، فإنها أضعفت نظام هذه الدول الإسلامية ومواردها إضعافاً خطيراً . وكان الصليبيون قد نجحوا فى أسبانيا حيث هزم المسلمون وأخرجوا ، ولكن بقاياهم تجمعوا فى غرناطة التى تأخر قدرها المحتوم بعض الوقت ، وكان النورمانديون الأشداء قد أخذوا صقلية من المسلمين . ولكن أين هذه الجراح والتمزيق من انقضاض المغول الوحشى المدمر (١٢١٩ – ١٢٥٨) على بلاد ما وراء النهر وفارس والعراق ؟ وتعرضت مراكز إشعاع الحضارة الإسلامية ، المدينة تلو الأخرى ، للسلب والنهب والمذابح والحريق – بخارى ، سمرقند ، بلخ ، نيسابور ، الرى ، هراة ، بغداد . وأسقطت الحكومات الإقليمية والمحلية ، وأهملت القنوات وتركت للرمال التى تذروها الرياح ، وأكرهت التجارة على الفرار ، ودمرت المدارس والمكتبات ، وتشتت الدارسون ورجال العلم أو ذبحوا أو استعبدوا . وتحطمت روح الإســـلام لنحو قرن من الزمان

ثم انبعثت من جديد فى بطء ؛ ثم اكتسح تتار بتمورلنك غربى آسيا بدمار جديد ، وشق الأتراك العثمانيون طريقهم عبر آسيا الصغرى إلى البسفور ، ولم تعرف حضارة أخرى فى التاريخ مثل هـذه الكوارث عدداً وانتشاراً وشمولا .

على أن المغول والتتار والأتراك أتوا بدمهم الجديد ليحل محل أنهار الدماء البشرية التى كانوا قد سفكوها . وكان الإسلا صار مترفاً فاتر الهمة ، وكانت بغداد — مثل القسطنطينية — فقد فقدت إرادتها فى امتشاق الحسام للدفاع عن النفس ؛ وأغرم الناس هناك بالحياة اللينة الهينة الرخية إلى حد الإشراف على الموت ؛ إن تلك الحضارة الرائعة — مثل الحضارة البيزنطية ، أينعت لتذوى وتذبل . ولكنها كانت غنية — مثل اليونان القديمة وإيطاليا النهضة — إلى حد القدرة على تمدين غزاتها ، بفضل ما أنقذ من شتاتها وذكرياتها ، وأنشأت فارس تحت حكم خانات المغول حكومة مستنيرة وأنتجت أدباً جيداً وفناً عظيماً ؛ وشرفت التاريخ بعالم جليل هو رشيد الدين . وفيما وراء النهر ، بنى تيمورلنك وعمر ، بشكل مؤثر ، قدر ما كان قد خرب ودمر . ووسط حملات السلب والنهب التى كان يشنها ، توقف ليكرم حافظ الشيرازى ؛ وفى الأناضول كان الأتراك فعلا متحضرين ؛ وكان الشعراء بينهم من الكثرة قدر كثرة الخطيات أو الخليلات . وفى مصر استمر المماليك فى إقامة الأبنية بناء العمالقة الجبارة . وفى غرب إفريقية أنجب الإسلام فيلسوفاً مؤرخاً ، كان يهلو إلى جانبه أعظم علماء المسيحية المعاصرة بمثابة حشرات صغيرة تقع فى الشرك وتموت جوعاً وسط عناكب الفلسفة النصرانية فى العصور الوسطى . وفى نفس الوقت كان الإسلام ينتشر فى الهند إلى أقصى الشرق .

١ — الأيلخانات فى فارس

١٢٦٥ — ١٣٣٧

عندما سار ماركوبولو فى ١٢٧١ عبر فارس ليرى الصين على عهد قبلاى خان ، وجد نفسه وسط إمبراطورية المغول . ولم يكن التاريخ قد سجل من قبل قط مملكة مترامية الأطراف مثلها . ففى الغرب لامست شواطئ نهر الدنيبر فى روسيا ، وفى الجنوب شملت القرم والعراق وفارس والتبت والهند حتى ضفاف نهر الكنج . وفى الشرق طوقت الهند الصينية والصين وكوريا ، وفى الشمال كان يقع موطنهم الأصلى منغوليا . وفى كل هذه البلاد تعهد حكام المغول الطرق ، ونهضوا بالتجارة ، وقاموا على حماية السائحين والمسافرين ، وأطلقوا حرية العبادة لمختلف العقائد .

لقد أسس هولاكو حفيد جنكيزخان ، بعد تدمير بغداد ١٢٥٨ ، عاصمة جديدة اسمها المراغة شمال غربى فارس . ولما مات ١٢٦٥ أصبح ابنه « أباقا » خان أو أمير فارس ، وخضع خضوعاً غير ثابت لقبلاى خان ، على بعد الشقة بينهما . ومن هنا بدأت أسرة الأيلخانية التى حكمت فارس والعراق حتى ١٣٣٧ . وكان أعظم أفراد هذه الأسرة هو غازان خان ، الذى كاد أن يكون أقصر رجال جيشه قامة ، ولكن إرادته كانت أقوى من أسلحتهم . وطرح غازان ولاءه للخان الأكبر فى منغوليا أو الصين وجعل من دولته مملكة مستقلة ، واتخذ من تبريز عاصمة لها ، وقدم إليه الرسل من الصين والهند ومصر وإنجلترا وأسبانيا : وقد أصلح الإدارة ، وثبت العملة ، وحمى الفلاحين من ملاك الأرض ومن اللصوص ، وساد الرخاء بدرجة تذكر ببغداد فى أزهى أيامها : وشيد فى تبريز مسجداً ومدرستين وأكاديمية للفلسفة ومرصداً ومكتبة ومستشفى . ووقف دخول أراض معينة ، وقفاً دائماً للإنفاق على هذه المنشآت ، ووفر لها أعظم العلماء والأطباء ورجال

العلم فى ذاك العصر . وكان هو نفسه واسع الثقافة . وكان يعرف عدة لغات ، واضح أن من بينها اللاتينية(١) . وشيد لنفسه مقبرة بلغت من الفخامة والضخامة مبلغاً ظن معه أن موته (١٣٠٤) كان بمثابة دخوله ظافراً منتصرا إلى مقر أشرف وأعظم .

ووصف ماركو بولو تبريز بأنها « مدينة عظيمة متألقة » . وقال عنها فرا أودريك Fra Oderic (١٣٢٠) « إنها أجمل مدينة فى العالم للتجارة ، فهنا توجد أية سلعة بكميات وفيرة . . . » ويقول المسيحيون هنا « إن الدخل الذى كانت تدفعه المدينة لحاكمها يفوق ما تدفعه فرنسا كلها لمليكها »(٢) هذا بالإضافة إلى « المبانى الأنيقة والمساجد الفخمة » ، « وأروع الحمامات فى العالم »(٣) . وقدر أودريك أن عدد سكانها يبلغ مليوناً من الأنفس .

وتابع أولجايتو السياسة المستنيرة التى انتهجها أخوه غازان . وشهد عصره بعضاً من أروع العمارة والزخرفة فى تاريخ فارس ، وان سيرة قاضى قضاته رشيد الدين فضل الله لتوضح ازدهار التعليم والثقافة والآداب فى هذا العصر . وولد رشيد الدين سنة ١٢٤٧ فى همذان ، وربما كان أبواه من اليهود ، كما قال أعداؤه ، مستشهدين بسعة اطلاعه وعلمه بالشريعة الموسوية . ولقد خدم رشيد الدين الخان أباقا كطبيب له ، وغازان بوصفه كبيرا للوزراء ، وأولجايتو بوصفه صاحب بيت المال . وشيد فى إحدى الضواحى شرقى تبريز حياً جديداً أسماه « ربع الرشيد » ، وهو مركز جامعى فسيح . وفى رسالة له محفوظة فى مكتبة جامعة كمبردج يصف هذا المركز فيقول :

« لقد شيدنا نزلا شاهقاً يناطح السحاب ، و١٥٠٠ حانوت تفوق الأهرام فى رسوخها ، و ٣٠٠٠ر٣٠ منزل فاتن ، كما

شيدت فيها الحمامات الصحية والحدائق الغناء والمخازن والمطاحن ومصانع النسيج والورق . ونزح الناس من كل حدب وصوب إلى هذا الربع ، وكان من بينهم مائتان من قراء القرآن . وزودنا بالمساكن ٤٠٠ آخرين من العلماء ورجال اللاهوت ورجال القانون وعلماء الحديث ، فى شارع سمى « شارع العلماء » . وأجرينا على هؤلاء جميعاً رواتب يومية وأرزاقاً ومخصصات سنوية للملابس ، ومبالغ من المال لشراء الصابون والحلوى . وأتينا كذلك بألف طالب ؛ وأصدرنا الأوامر بصرف الأرزاق والمخصصات اليومية لهم ، حتى يتفرغوا فى راحة وأمان ؛ لطلب العلم ونفع الناس به . كما حددنا كذلك ، من من الطلبة ، وكم منهم يدرسون مع كل أستاذ أو معلم . وبعد التحقق من صلاحية كل طالب وقدرته على فرع الدراسة الذى يريد التخصص فيه ؛ أمرناه بأن يتعلمه .

وأولينا عنايتنا ورعايتنا بصفة خاصة ويطرق شتى ، لخمسين طبيباً ماهرا جاءوا من الهند والصين ومصر وسوريا . فأمرنا بأن يترددوا على دار الشفاء كل يوم ، وأن يتعهد كل منهم عشرة طلاب صالحين لدراسة الطب ، ويدربهم على ممارسة هـذا الفن الجليل . كما أمرنا بأن يعهد إلى أطباء النظارات والجراحين وأطباء العظام الذين يعملون بدار الشفاء ، بخمسة من أبناء موظفينا وحاشيتنا ليتعلموا طب العيون والجراحة وطب العظام . ولكل هؤلاء الرجال شيدنا حيا خلف دار الشفاء . . . سمى « شارع الأطباء » . كذلك استقرت كل جماعة من أرباب الحرف ورجال الصناعة الذين أتينا بهم من مختلف البلاد ، فى شارع سمى باسمها »(٤) .

وخليق بنا أن يتولانا أشد العجب والدهشة لرجل وجد، مع إسهامه النشيط إدارة شئون المملكة ، من الوقت والمعرفة ما استطاع معه تدوين خمسة كتب فى اللاهوت ، وأربعة فى الطب وفى نظم الحكومة ، وكتاباً من عدة مجلدات فى تاريخ العالم . وفوق ذلك يؤكد لنا أحد المسلمين المعجبين أن رشيد الدين استطاع أن يخصص لتأليفه فترة ما بين صلاة الفجر وشروق الشمس . ومهما يكن من أمر فإن هناك أياماً تتلبد فيها السماء بالغيوم حتى فى أذربيجان . وقضى رشيد الدين سبع سنين فى كتاب « جامع التواريخ » ونشره فى مجلدين ضخمين ، ويقتضى نشره بالإنجليزية سبع مجلدات . وضمنه بيانات جوهرية عن المغول من جنكيزخان إلى غازان ، وعن مختلف الدول والأسرات الإسلامية فى شرقى العالم الإسلامى وغربيه ، وعن فارس واليهود قبل بعثة الرسول وبعدها ، وعن الصين والهند ، مع دراسة مستفيضة لبوذا والبوذية ، مع موجز مبسط لأعمال وأفكار ملوك أوربا وبابواتها وفلاسفتها ، ويشهد كل الذين قرأوا هذه المجلدات — ولو أنها لم تترجم بعد إلى أية لغة أوربية — بأنها أقيم عمل فى النثر الأدبى فى فارس . ولم يستفد رشيد الدين من محفوظات حكومته فحسب ، ولكنه استخدم كذلك علماء من الصين ليؤمنوا له المعاهدات الصينية وغيرها من الوثائق ، ويبدو أنه قرأها مع غيرها من المراجع العربية والعبرية والتركية والمغولية ، كل فى لغته الأصلية(٥) .

ورغبة فى نقل هذه المجموعة الوافية من التواريخ إلى الأعقاب رغم الزمن والحرب ، أرسل رشيد الدين نسخاً من هذا الكتاب إلى المكتبات هنا وهناك ، وترجم إلى العربية ووزع ، وخصص أموالا لكتابة نسخة بالعربية وأخرى بالفارسية فى كل عام ، لإهدائها إلى إحدى المدن فى العالم الإسلامى . على أن كثيراً من هذا الكتاب مع مؤلفاته الأخرى قد ضاع ، وربما يرجع هذا إلى الكارثة السياسية التى حلت به . ذلك أنه فى سنة ١٣١٢ أشرك الأمير أولجايتو على شاه مع رشيد الدين فى الإشراف على بيت المال ، وفى زمن « أبى سعيد »

الذى خلف أولجابتو ، نشر على شاه مختلف الاتهامات ضد زميله رشيد الدين ، وأغرى الخان بأن رشيد الدين وابنه إبراهيم كانا قد دسا السم لأولجابتو . فعزل المؤرخ (رشيد الدين) وسرعان ما أعدم (١٣١٨) وهو فى سن السبعين ، مع أحد أبنائه ، وصودرت ممتلكاته ، وحرمت مؤسساته من العطايا والمنح ، ونهبت ضاحية « ربع رشيد » ودمرت .

وقام أبو سعيد بترضية متأخرة ، ذلك أنه عين ابنا آخر من أبناء المؤرخ وزيراً له ، ونهج غياث الدين سبيل الحكمة والعدالة فى إدارة دفة الحكومة . وأعقب موت أبى سعيد فترة من الفوضى ، ووضعت نهاية لحكم أسرة الأيلخانيـــة ، وانقسمت مملكتهم إلى ولايات صغيرة دمرتها الحرب ، وخلصها الشعر .

٢ ـ حافظ الشيرازى

١٣٢٠ — ١٣٨٩

ما كان أكثر من ينظم القصيد فى فارس . وكان الملوك يكرمون الشعراء الذين لم يتقدم عليهم فى الحظوة بهذا التكريم والتبجيل إلا الحظايا والحظاظون والقواد . وفى زمن حافظ طبقت الآفاق شهرة عشرين من الشعراء ، وذاع صيتهم من البحر المتوسط إلى نهر الكنج ، ومن اليمن إلى سمرقند ، ولكنهم جميعاً ، على أية حال ، أحنوا رءوسهم إجلالا لشمس الدين محمد — المشهور باسم حافظ الشيرازى — وأكدوا له أنه بز « الشيخ سعدى » الشاعر الرحيم نفسه . وارتضى حافظ هذا التقدير ، وأخذ يحدث نفسه فى احترام قائلا :

« قسما بالقرآن الذى تعيه فى صـــدرك يا حافظ ، لم أر قط أجمل من شعرك »(٦) .

« وحافظ » لفظة معناها « الذَّكور » الذى يحفظ ويتذكر ، وهو لقب

أطلق على كل من حفظ القرآن كله — مثل شاعرنا — ولم يعرف تاريخ ميلاده ، وأبواه غير معروفين. وسرعان ما أقبل على الشعر : وكان أول من رعى الشاعر واحتضنه هو « أبو إسحق » الذى عينه غازان خان حاكماً على جنوب إيران . وأولع أبو إسحق بالشعر أيما ولع ، وأهمل شئون الحكومة . ولما جاءه النذير بأن بعض القوات المعادية تعد العدة لمهاجمة عاصمته « شيراز » ، قال إنه لسفيه ذلك الرجل الذى يضيع مثل هذا الربيع الجميل فى الحرب . ولكن قائداً متبلد الشعور هو « مبارز الدين محمد بن المظفر » استولى على شيراز وقتل أبا إسحق (١٣٥٢) ، وحرم شرب الخمر وأغلق كل حانة فى المدينة . وفى هذا كتب حافظ مرثية حزينة قال فيها :

« ولو أن الخمر تبعث السرور ، والريح تنشر أريج الورود ،
لا تشربوا الخمر على أنغام القيثارة لأن المحتسب يقظ .
وخبئوا الطاس فى أكمام عباءاتكم المرقعة ،
لأن الزمن يسفك الدماء، كما ينسكب الخمر من عين الإبريق الدامعة ،
واغسلوا بدموعكم ما تلطخ بالخمر من أرديتكم
لأن هذا موسم الورع وزمن التقشف والتعفف »[٧] .

ولما وجد خليفة ابن المظفر أن تحريم الخمر أمر غير عملى ، أو تبين أن شاربى الخمر أسلس قياداً وأيسر حكماً من المتطهرين المتزمتين ، أعاد فتح أبواب الحانات ، وخلد حافظ اسمه .

وسار شاعرنا على تقاليد الفرس فى نظم كثير من القصائد فى الخمر ، واعتبر فى بعض الأحيان أن زجاجة من الخمر « تسمو على تقبيل العذارى »[٨] . ولكن حتى الكروم تجف وتذوى بعد ألف مقطع من الشعر ، وسرعان ما تبين حافظ أن الحب ، عذرياً كان أو عملياً ، لا يستغنى عنه الشعر .

« هل تعرف ما هو الحظ السعيد ؟ إنه الظفر بنظرة إلى غادة هيفاء ، إنه التماس صدقة منها فى زقاقها ، وازدراء أبهة الملك »(٩).

وبدا له الآن أن الحرية ليست حلوة مثل حلاوة العبودية فى الحب .

« إن عمرنا قصير ، ولكن طالما أننا قد نفوز
بالمجد وهو الحب ، فلا تحتقر
الإصغاء إلى توسلات القلب ،
فإن سر الحياة سوف يبقى فيما وراء العقل .
فاهجر عملك إذن وقبل حبيبتك الآن .
إنى لأمنح العالم كله هذه النصيحة الغالية ،
عندما تتفتح أزهار الربيع ، وتهجر الريح الطاحون
وتنزلق برفق لتقبل الغصن المورق .
أى حسناء شيراز ، امنحينى أمنية الحب ،
ومن أجل شامتك — تلك الحبة من الرمل العالقة
بصفحة خد من اللؤلؤ — سوف يمنحك حافظ
كل بخارى ، وكل سمرقند .
آه لو دخلت مع القدر فى رهان مرة ،
لحاولت برمية واحدة ، مهما كان الثمن ،
لألتقط أنفاسى ، أيها الحب اجمع بيننا ،
فما حاجتى بعد ذلك إلى الجنة .
إن الذى خلق غدائر شعرك من ذهب وفضة ،
وجمع بين الوردة الحمراء والوردة البيضاء
وأسلم إليهما خدك فى شهر العسل
أليس بقادر على أن يمنحنى الصبر ، وأنا ابنه(١٠) » .

ويبدو أنه آخر الأمر ، قد هدأت نفسه بالزواج ، فلو فسرنا قصائده الرقيقة تفسيراً صحيحاً ، فإنه وجد زوجة وأنجب عدة أطفال ، قبل أن يحزم أمره بين النساء والخمر . ويبدو أنه فى بعض أشعاره يرثيها ويتألم لفراقها :

« سيدتى ، يا من حولت بيتى
إلى فردوس حين حللت به ،
من أخمص القدم إلى قمة الرأس كان ثمة ملاك
من عند الله أحاطها بعنايته ، كانت طاهرة ، مبرأة من الإثم ،
جميلة المحيا مثل القمر ، عاقلة ،
وعيناها ذواتى النظرة العطوفة الناعمة
كانتا تشعان فتنة لا حدود لها
ثم حدثنى قلبى : هنا سوف يستقر بى المقام !
فإن هذه المدينة تتنفس بحبها فى كل ركن منها .
ولكنها نقلت إلى عالم بعيد قصى ،
للأسف لم يعرفه قلبى ، وا أسفاه أيها القلب المسكين !
إن نجماً خبيثاً شريراً أعمل أثره
فأرخى قبضة يدى التى كانت تمسك بها ، ووحدها بعيداً
رحلت من كانت تسكن فى صدرى »(١١) .

ومهما يكن من أمر فقد ألف المقام ، وركن إلى العزلة الهادئة ، وقلما ارتحل إلى خارج شيراز ، وقال إنه يترك لقصائده أن تجوب الأرض بدلا من شخصه ، وكم دعى إلى بلاط كثير من الملوك والأمراء . وأقنع للحظة وجيزة بقبول دعوة من السلطان أحمد بالإقامة فى القصر الملكى فى بغداد(١٢) ،

ولكن حبه لشيراز أبقاه حبيساً بها ، وكان يشك فى أن بالجنة نفسها مثل هذه الأنهار الفاتنة أو مثل هذه الورود الحمراء فى شيراز . وكان بين الحين والحين يوجه قصائد المديح إلى أمراء الفرس فى عصره أملا فى عطايا أو جوائز تخفف من ألم الفقر الذى كان يعانى منه ، لأنه لم يكن فى فارس ناشرون لينقلوا نفثات اليراع عبر البحار ، وكان على الفنان (أى الشاعر) أن ينتظر على أبواب النبلاء والملوك . والحق أن شاعرنا « حافظ » كاد أن يرحل يوماً إلى الخارج ، ذلك أن أحد أمراء الهند لم يبعث إليه بالدعوة فحسب ، بل زوده كذلك بالمال اللازم لنفقات الرحلة ، فأقلع حافظ ووصل إلى هرمز على الخليج الفارسى ، وكان على وشك الركوب فى السفينة فهبت عاصفة هوجاء حولته عن عزمه ، وحببت إليه الاستقرار . فعاد أدراجه إلى شيراز ، وبعث إلى الأمير الهندى بقصيدة بدلا من شخصه .

ويضم ديوان حافظ ٦٩٣ قصيدة معظمها غنائية ، وبعضها رباعيات ، وبعضها الآخر شذرات غير واضحة المعنى . وهى أصعب فى ترجمتها من أشعار دانتى ، زاخرة بقوافٍ كثيرة مما يجعل منها فى الإنجليزية شعراً غير مصقول محطم الوزن ، كما تعج بالإشارات والتلميحات المبهمة التى كانت تبهج عقول الناس فى ذاك الزمان ، ولكنها الآن ثقيلة على السمع فى الغناء ، والأفضل أن توضع نثراً فى الغالب :

« كاد الليل أن ينصرم ، حين جذبنى أريج الورود ، فدلفت إلى الحديقة ، مثل العندليب ، أفتش عن بلسم للحمى التى انتابته .

وهناك فى الظل تألقت وردة ، وردة حمراء كأنها مصباح محجب ، فحدقت النظر فى محياها ،

إن الوردة فاتنة لمجرد أن وجه محبوبتى فاتن . . . وماذا يكون عبير المروج ، والنسيم الذى يهب فى الحديقة ، إذا لم يكونا

لحد محبوبتى الذى يشبه الخزامى (التيوليب) ؟

وفى ظلمة الليل حاولت أن أطلق قلبى من رباط غدائر شعرك ولكنى أحسست بلمسات خدك ورشفت رحيق شفتيك ، وضممتك إلى صدرى . ولفنى شعرك وكأنه لهب . وألصقت شفتى بشفتيك ، وأسلمت قلبى ونفسى لك كأنهما فدية(١٣).

وكان حافظ إحدى النفوس الموهوبة الصادية المنهوكة ، التى تستجيب وتتأثر — عن طريق الفن والشعر والمحاكاة والرغبة شبه اللاواعية ، تستجيب وتتأثر بالجمال إلى حد الرغبة فى عبادته ، فترغب بالعينين وبالألفاظ وبأطراف الأنامل ، أن تعبد أى شكل جميل ، سواء كان نحتاً على حجر أو رسماً أو آدمياً أو زهرة ، ونعانى فى صمت مكبوت كلما ألم بها الجمال . ولكن هذه النفوس أيضاً تجد فيما تفاجأ به كل يوم من فتنة أو سمو أو جمال جديد ، بعض المغفرة لقصر عمر الجمال ولسلطان الموت . ولذلك خلط حافظ التجديف بالعبادة ، وانساق فى هرطقة غاضبة حتى فى الوقت الذى كان فيه يثنى على « الواحد الأحد الخالد » وهو المصدر الذى يفيض منه كل جمال على الأرض .

والتمس كثير من الناس أن يضفوا عليه احتراماً ووقاراً ، بتفسير خمره بأنها نشوة روحية ، وحاناته بأنها أديار ، ولهبه بأنها « النار المقدسة » . صحيح أنه أصبح متصوفاً وشيخاً ، وارتدى ملابس الدراويش ، ونظم قصائد صوفية غامضة ، ولكن معبوداته الحقيقية كانت الخمر والنساء والغناء ، وبدأت حركة لمحاكمته بوصفه زنديقاً كافراً ، ولكن أفلت منها بالتوسل بأن قصائد الهرطقة كان يقصد بها أن يعبر عن آراء أحد المسيحيين ، لا عن آرائه هو . ومع ذلك كتب يقول :

« أيها المتحمس ، لا تظن أنك بمنجاة من خطيئة الكبرياء ؛
فليس الفرق بين المسجد وكنيسة الكفار سوى الغرور »(١٤) .

والكافر هنا بطبيعة الحال هو المسيحى ؛ وبدا فى بعض الأحيان لحافظ أن « الإله » ما هو إلا شىء اختلقته آمال الإنسان :

« وهذا الذى يسوقنا فى هذه الأيام التى تمر كوميض البرق ،
هذا الذى نعبده رغم معرفتنا بمن يفنيه أو يذبحه ،
أنه هو نفسه قد يتولاه الحزن والأسى ، لأننا حين نفد
سيختفى هو أيضاً فى هذا اللهيب نفسه »(١٥) .

ولما مات حافظ كانت عقيدته مشكوكاً فيها ، وكان مذهب المتعة عنده لاصقاً به إلى حد الاعتراض على تشييع جنازته فى احتفال دينى ، ولكن أصدقاءه أنقذوا الموقف بتفسير أشعاره بالمجاز والاستعارة . وجاء بعد ذلك جيل دفن رفاقه فى حديقة أطلقوا عليها « الحافظية » تزدان بورود شيراز ، وتحققت نبوءة الشاعر بأن قبره سيكون « مزاراً يحج إليه عشاق الحرية من جميع أنحاء العالم » ؛ وعلى لوح مقبرة حافظ المصنوع من المرمر نقشت إحدى قصائده ، وهى عامرة بالروح الدينية العميقة أخيراً . وفيها :

« أين أنباء الوحـــدة ؟ حتى أنهض
من التراب ، سوف أصحو لأرحب بك !
إن نفسى مثل الطائر الزاجل ، حنيناً منها إلى الجنة ،
سوف تصحو وتتوجع من شرور العالم التى أطلقت من عقالها .
وعند ما يهتف بى صوت حبك لأكون عبداً لك
سوف أصحو إلى ما هو أعظم كثيراً من السيادة
على الحياة والعيش ، والزمن والعمر الفانى .
صب يا إلهى من سحب نعمتك الهادية
شآبيب الرحمة التى تسرع إلى قبرى ،

قبل أن أنهض، مثل التراب الذى تذروه الرياح من مكان إلى مكان، إلى ما وراء علم الإنسان .

وعندما تعرج بقدميك المباركتين إلى قبرى ،
سوف تحضر بيدك الخمر والإغراء إلىّ ،
ولسوف يرن صوتك فى طيات ملاءتى الملفوفة ،
ولسوف أنهض وأرقص على غناء قيثارتك .
ورغم شيخوختى ، ضمنى ليلة إلى صدرك ،
لإنى ، عندما ينبثق الفجر ليوقظنى ،
بنضارة الشباب فى خدى ، من بين أحضانك سوف أنهض .
انهض ! دع عينى تسرح وتمرح فى نعمتك العظيمة !
أنت الهدف الذى حاول كل الناس الوصول إليه ،
أنت المحبوب الذى يعبده حافظ ، ووجهك
سوف يأمره أن ينبعث من الدنيا ومن الحياة ويصحو(١٦)

٣ — تيمـــور

١٣٣٦ — ١٤٠٥

عرفنا أول ما عرفنا عن التتار أنهم قوم رحل من آسيا الوسطى ، وأنهم أنسباء وأقرباء ، وجيران للمغول ، وشاركوهم فى الحملات على أوربا . ووصف كاتب صينى من القرن الثالث عشر تحدرهم ، وصفاً كثير الشبه بما صور به المؤرخ جوردانيز أمة الهون قبل ذلك بألف سنة ، فالتتار قصار القامة ، كريهو الطلعة والمحيا للغرباء عنهم ، يجهلون القراءة والكتابة ، مهرة فى الحرب ، يسددون سهامهم دون أن تطيش من فوق ظهر جواد مسرع ، ويحافظون على استمرار جنسهم أو عرقهم بالمواظبة على تعـــدد للزوجات . وكانوا فى هجراتهم وحملاتهم ينقلون معهم كل متاعهم وأسراتهم — الزوجات والأولاد والجمال والخيول والغنم والكلاب ، ويرعون الحيوانات

فيما بين المعارك ، ويتغذون بلحومها وألبانها ، ويتخذون الملابس من جلودها . وكانوا يأكلون بنهم وشراهة عند توافر المؤن ، ولكن كانوا يحتملون الجوع والعطش والقيظ والقر ، « بصبر أكثر من أى شعب آخر فى العالم »(١٧) . وكانوا يتسلحون بالسهام المكسوة أطرافها أحياناً بالنفط الملتهب ، وبالمدافع ، وبكل معدات العصور الوسطى للحصار ، ومن ثم كانوا أداة صالحة مستعدة لكل من كان يحلم بتأسيس إمبراطورية منذ كان فى المهد صبياً .

وعند ما مات جنكيزخان (١٢٢٧) وزع ملكه على أبنائه الأربعة : فأعطى جغتاى الإقليم المحيط بسمرقند ، وحدث أن أطلق اسم هذا الابن على قبائل المغول أو التتار التى حكمها . وولد تيمور (أى الحديد) ، فى مدينة « كش Kesh » فى بلاد ما وراء النهر ، لأمير إحدى هذه القبائل . وطبقاً لما رواه كلافيجو Clavijo أدى « سوط الله » الجديد هذه المهمة منذ نعومة أظفاره : فنظم عصابات من صغار اللصوص لسرقة الغنم والماشية من المراعى المجاورة(١٨) . وفقد فى إحدى هذه المغامرات أصبعيه الوسطى والسبابة من يده اليمنى ، وفى مغامرة أخرى أصيب بجرح فى عقبه ، ومن ثم عرج بقية أيام حياته(١٩) فلقبه أعداؤه Timur-i-Lang أى تيمور الأعرج ، ولكن الغربيين غير المدققين ، مثل مارلو حرفوا هذا الاسم إلى Tamburlane أو Tamerane . وقد وجد تيمور فسحة من الوقت لتلقى قليل من التعليم ، وقرأ الشعر ، وعرف الفرق بين المبادئ والانحلال . ولما بلغ سن السادسة عشرة ولاه أبوه زعامة القبيلة . وآوى إلى أحد الأديار ، لأن هذا الرجل العجوز (الوالد) قال عن الدنيا إنها ليست « أفضل من زهرية من الذهب مليئة بالثعابين والعقارب »(*) وقيل إن الوالد نصح ابنه أن يرعى الديانة دوماً ،

(*) هذا ، على أية حال ، منقول من مذكرات تيمور (٥ ، ١) المظنون أنه أملاها فى أعوامه الأخيرة ، ولكن يشك فى صحتها .

واتبع تيمور هذه الوصية إلى حد تحويل الرجال إلى مآذن (تكديس بعضهم فوق بعض للتنكيل بهم) .

وفى سنة ١٣٦١ عين خان المغول « خوجه الياس » حاكماً على بلاد ما وراء النهر ، وعين تيمور مستشاراً له ، ولكن الشاب النشيط لم يكن قد نضج بعد لممارسة فن الحكم ، وتشاجر بعنف مع سائر موظفى خوجه الياس ، وأجبر على الهروب من سمرقند إلى الصحراء . . . فجمع حوله عدداً من المحاربين الشبان ، وضم عصبته إلى عصبة أخيه الأمير حسين الذى كان فى مثل ظروفه . وتجولوا من مكمن إلى مكمن ، حتى تحجرت أجسامهم و نفوسهم بسبب الأخطار والتشرد والفقر ، إلى أن واتاهم بعض الحظ حين استخدموا نقمع فتنة فى سيستان Sistan ، وما أن اشتد عود الأخوين حتى أعلنا الحرب على خوجه الياس وخلعاه وذبحاه . وأصبحا حاكمين فى سمرقند على قبائل جغتاى (١٣٦٥) ، وبعد ذلك بخمس سنوات تآمر تيمور على ذبح الأمير حسين ، وأصبح السلطان الوحيد .

وتروى سيرة حياته المشكوك فيها ، عن عام ٧٦٩ هـ (١٣٦٧ م) : « دخلت عامى الثالث والثلاثين ، ولما كنت دوم قلق البال لا يقر لى قرار ، فقد كنت تواقاً إلى غزو بعض البلاد المجاورة »(٢٠) . وكان يقضى أيام الشتاء فى سمرقند ، وقل أن انقضى ربيع دون أن يخرج فيه إلى حملة جديدة . وقد لقن المدن والقبائل فى بلاد ما وراء النهر أن تتقبل حكمه طواعية أو سلماً لا حرباً . وفتح خوارزم وسيستان ، وأخضع المدينتين الغنيتين هراة وكابول ، وأحبط المقاومة والتمرد بما كان ينزل من عقاب وحشى . ولما استسلمت مدينة سبزاوار Sabzawar بعد حصار كلفه كثيراً ، أسر ألفين من رجالها ، « وكدسهم أحياء ، الواحد فوق الآخر ، وضرب عليهم بنطاق من الآجر والطين ، وأقام منهم مئذنة ، حتى إذا استيقن الرجال جبروت غضبه ، لا يعود يغويهم شيطان الصلف والكبرياء » . وهكذا روى القصة مادح

معاصر(٢١) . وغفلت مدينة زيريه Zirih عن هذه الحقيقة وأبدت مقاومة ، فأقام الغازى من رؤس أبنائها عدداً أكبر من المآذن . واجتاح تيمور أذربيجان واستولى على لورستان وتبريز ، وأرسل فنانيهما إلى سمرقند . واستسلمت أصفهان فى ١٣٨٧ وارتضت بقاء حامية من التتار بها ، فلما غادر تيمور المدينة انقض السكان على الحامية وذبحوا رجالها . فعاد تيمور بجيشه وانقض على المدينة وأمر كل فرد فى جيشه أن يأتيه برأس واحد من الفرس . وقيل إن سبعين ألفاً من رءوس الأصفهانيين علقت على أسوار المدينة أو أقيمت منها أبراج تزين الشوارع(٢٢) . فلما سكن روع تيمور وهدأت نفسه خفض الضرائب التى كانت المدينة تدفعها لحاكمها ، ودفعت سائر مدن فارس الفدية دون ضجة .

وتقول أسطورة أطرف من أن تصدق ، إنه فى شيراز فى ١٣٨٧ ، دعا تيمور أشهر مواطنى المدينة إلى المثول بين يديه ، وقرأ عليه غاضباً سطوراً (من الشعر) كانت قد قدمت فيها مدينتا بخارى وسمرقند من أجل الخال فى خد سيدة ، وقيل إن تيمور شكا غاضباً وهو يقول : « إنى بضربات سيفى اللامع الصقيل أخضعت معظم الأرض المعمورة لأزين بخارى ، وسمرقند ، مقر حكومتى ، وأنت أيها التعس الحقير تريد أن تبيعهما من أجل شامة سوداء فى خد سيدة تركية فى شيراز ! » وتؤكد الرواية أن حافظ انحنى أمام الأمير وقال : « وا أسفاه أيها الأمير ، أن هذا التبذير هو سبب البؤس الذى ترانى فيه » . واستساغ تيمور هذا الجواب فأبقى على حياة الشاعر ومنحه هدية سنية . ومما يؤسف له أن أحداً من كتاب سيرة تيمور المتقدمين لم يورد ذكر هذه الحادثة الطريفة(٢٣) .

وعند ما كان تيمور فى جنوبى فارس جاءته الأنباء بأن طقطميش خان القبيلة الذهبية انتهز فرصة غيابه ليغزو بلاد ما وراء النهر ، بل حتى ليعمل السلب والنهب فى المدينة الجميلة بخارى التى قدرها حافظ بنصف خال على

خد سيدة ، فسار تيمور ألف ميل إلى الشمال (تصور مشاكل التموين فى مثل هذه المسيرة) ، ورد طقطميش إلى الفولجا ، وسار جنوباً وغرباً ، وأغار على العراق وجورجيا وأرمينية ، وهو يذبح فى طريقه كل السادة الذين دمغهم بأنهم « شيوعيون مضلّلون »(٢٤) . واستولى فى ١٣٩٣ على بغداد بناء على طلب سكانها الذين لم يعودوا يحتملون جور سلطانهم أحمد بن أويس . ولما رأى تدهور العاصمة أمر معاونيه بإعادة بنائها ، وفى نفس الوقت أضاف إلى حريمه نخبة من الزوجات ، وإلى حاشيته واحداً من أشهر الموسيقيين ، ولجأ السلطان أحمد إلى بايزيد الأول سلطان العثمانيين فى بروسه . وطلب تيمور تسليم السلطان أحمد ، فرد بايزيد بأن هذا أمر يخدش تقاليد الضيافة عند الأتراك .

وكان من الممكن أن يتقدم تيمور إلى بروسه ، لولا أن طقطميش عاود غزو بلاد ما وراء النهر ، فاكتسح التتر المهتاج جنوبى روسيا ، وبينما كان لطقطميش مختبئاً فى البرية ، اجتاح مدينتى القبيلة الذهبية : سراى واستراخان . ولما لم يجد تيمور أية مقاومة ، تقدم بجيشه غرباً من الفلجا إلى الدون ، وربما كان من خطته أن يضم روسيا كلها إلى مملكته . وأقسام الروس فى البلاد الصلوات فى حرارة وحمية ، وحملت « عذراء فلاديمير » إلى موسكو ، بين صفوف الضارعين الراكعين وهم يصيحون : « يا أم الإله ، خلصى روسيا » . وساعد فقر السهوب على إنقاذها . ولما وجد تيمور أنه لا غناء فى هذه السهول الجرداء ولا شىء فيها يمكن سلبه ، ارتد إلى الدون وقاد جنوده المنهوكين الجياع إلى سمرقند (١٣٩٥ — ١٣٩٦) .

وتجمع كل الروايات على أنه كان فى الهند ثروات تشترى مائة روسيا ، وأعلن تيمور أن حكام المسلمين فى شمال الهند شديدو التسامح مع الهندوس الوثنيين الذين يجب عليهم اعتناق الإسلام أو تحويلهم إليه . وسار تيمور ، وهو فى الثالثة والستين من العمر على رأس جيش قوامه ٩٢٫٠٠٠ رجل

(١٣٩٨) . وعلى مقربة من دلهى التقى بجيش سلطانها محمود ، فهزمه ، وذبح مائة ألف (؟) سجين ، ونهب العاصمة ، وجلب معه إلى سمرقند كل ما استطاعت جنوده ودوابه أن تحمل من ثروات الهند الأسطورية :

وفى ١٣٩٩ ، ولم تكن قد محيت من ذاكرته قصـــة أحمد وبايزيد الأول ، تقدم مرة ثانية ، وعبر فارس إلى أذربيجان ، وخلع ابنه المبذر المضيع الذى كان حاكماً عليها ، وشنق الشعراء والوزراء الذين كانوا قد أغروا الشاب بالانغماس فى اللهو ، واجتاح جورجيا . ولما دخل آسيا الصغرى حاصر سيواس ، واغتاظ لطول مقاومتها ، فدفن أربعة آلاف جثدى مسيحى أحياء — أو أن مثل هذه القصص من دعاية الحرب ؟ ورغبة منه فى حماية جناح جيشه عند مهاجمة العثمانيين ، أرسل رسولا إلى مصر مقترحاً ميثاق عدم اعتداء ، ولكن سلطان المماليك أودع الرسول السجن ، واستأجر سفاحاً لقتل تيمور . وبدأ المشروع بالإخفاق . وبعد إخضاع حمص وحلب وبعلبك ودمشق ، سار التترى إلى بغداد التى طردت كل الموظفين الذين عينهم هو . واستولى عليها بثمن باهظ ، وأمر جنوده البالغ عددهم عشرين ألفاً بأن يحضر إليه كل منهم رأس واحد من الأهالى ، وتم له ما أراد — أو هكذا قيل : أغنياء وفقراء ، رجالا ونساء ، شيباً وشباناً ، فكلهم دفعوا ضريبة الرأس هذه ، وكدست رءوسهم على شكل أهرام مروعة أمام أبواب المدينة (١٤٠١) . وأبقى الغزاة على مساجد المسلمين وعلى أديار الرهبان والراهبات ، وسلبوا ودمروا ما عداها تدميراً تاماً ، حتى العاصمة التى كانت يوماً مدينة زاهرة باهرة لم تعد سيرتها الأولى إلا فى أيامنا هذه بفضل زيت البترول .

وإذ أيقن آنذاك تيمور أنه يمكنه أن يطمئن على ملكه عن اليمين وعن الشمال ، أرسل إلى بايزيد إنذاراً نهائياً للتسليم . ولكن سلطان الأتراك الذى زادت ثقته بنفسه بفضل انتصاره فى معركة نيقوبوليس ١٣٩٦ ،

أجاب بأنه سوف يسحق جيش التتار ويتخذ من زوجة تيمور الأثيرة جارية له[٣٥] والتحم أقدر قائدين فى زمانهما فى أنقرة ١٤٠١، وأرغمت استراتيجية تيمور أعداءه الأتراك على القتال بعد أن أرهقهم وأنهك قواهم طول السير . وهزم الأتراك هزيمة منكرة وأخذ بايزيد أسيراً . وابتهجت القسطنطينية ، وظل العالم المسيحى بمنجاة من الأتراك لمدة نصف قرن بفضل التتار . وواصل تيمور سيره فى اتجاه أوربا إلى بروسه وأحرقها ، وحمل معه من المدينة المكتبة البيزنطية والأبواب الفضية . وتقدم نحو البحر المتوسط ، وانتزع أزمير من أيدى فرسان رودس ، وذبح السكان ، وأقام فى إفسوس . وارتعد العالم المسيحى فرقاً مرة أخرى ، وقدمت جنوه التى كانت لا تزال تحتفظ بخيوس وفوشيا وميتلين خضوعها ودفعت الجزية . وأفرج سلطان مصر عن رسول ملك التتار ، وانخرط فى الزمرة الممتازة ، زمرة التابعين الخاضعين لسلطان تيمور . وعاد تيمور أدراجه إلى سمرقند ، وهو أقوى حكام عصره ، حيث امتد ملكه من أواسط آسيا إلى النيل ومن البسفور إلى الهند . وبعث إليه هنرى الرابع ملك إنجلترا بالتهنئة ، كما أوفدت إليه فرنسا أسقفاً يحمل الهدايا . وأوفد إليه هنرى الثالث ملك قشتالة بعثة شهيرة برياسة روى جونزاليز كلافيجو .

وإنا لمدينون لمذكرات كلافيجو بمعظم ما نعلمه عن بلاط تيمور . فقد غادر قادس فى ١٣ مايو ١٤٠٣ ، ومر بالقسطنطينية وطرابزون وأرضروم ، وتبريز وطهران (التى وردت الآن لأول مرة على لسان أحد الأوربيين) ونيسابور ، ومشهد ، حتى وصل سمرقند فى ٣١ أغسطس ١٤٠٤ . وكان قد توقع لسبب ما ، أن هناك قوماً من السفاكين الكريهى الطلعة . وما كان أشد دهشته لكبر عاصمة تيمور وازدهارها ، وفخامة المساجد والقصور ، وسلوك ساداتها وعاداتهم الحميدة ، وثراء البلاط وترفه ، واحتشاد للفنانين والشعراء حول تيمور احتفاء به وتكريماً له .

وكانت المدينة آنذاك قد مضى على بنائها أكثر من ألفى عام ، وكانت تضم نحو مائة وخمسين ألف نسمة مع « مجموعة من أعظم الدور وأجملها » ، مع كثير من القصور « التى تظللها الأشجار » ، بهذا كله رجح كلافيجو أن سمرقند « أكبر من أشبيلية » ، هذا بخلاف الضواحى المترامية . وكان الماء يرفع إلى البيوت من نهر يجرى بالقرب من المدينة ، وكست مياه الرى المنطقة الخلفية بالخضرة . وتضوع الهواء بعبير البساتين والكروم . وتوافرت المراعى للأغنام والماشية ، ونمت المحاصيل الكثيرة . وكان فى المدينة مصانع للمدافع والدروع والأقواس والسهام والزجاج والخزف ، والمنسوجات المتناهية فى اللمعان بما فيها « القرمزى » وهو الصباغة الحمراء ، ومنه اشتقت اللفظة الإنجليزية Crimson . وكانت المدينة تضم التتار والأتراك والعرب والفرس والعراقيين والأفغانيين والكرجيين واليونان والأرمن والكاثوليك والنساطرة والهندوس ، ممن يعملون فى الحوانيت أو فى الحقول ، ويسكنون فى بيوت من الطوب أو من الطين أو الخشب ، أو يسرحون ويمرحون فى المدينة على ضفة النهر ، كل يمارس شعائره الدينية فى حرية تامة ، ويدعو لعقيدته المتعارضة مع سائر العقائد . وكانت تحف على جوانب الشوارع الرئيسية الأشجار والحوانيت والمساجد والمدارس والمكتبات ، وكان هناك مرصد ، وكان ثمة جادة رئيسية عريضة تقطع ، فى خط مستقيم ، المدينة من أحد طرفيها إلى الطرف الآخر ، وكان القطاع الرئيسى من هذا الطريق العام مغطى بالزجاج(٣٦) .

وفى ٨ سبتمبر استقبل إمبراطور التتار كلافيجو ، الذى مر بساحة فسيحة « نصبت فيها خيام كثيرة من الحرير » ، وسرادقات مطرزة بالحرير ، وكانت الخيمة هى المسكن المألوف لدى التتار ، وكان لتيمور نفسه فى هذه الساحة خيمة يبلغ محيطها ٣٠٠ قدم ، كما كان هناك أيضاً قصور ذوات أرضية من الرخام أو القرميد ، مزودة بأثاث متين مرصع بالأحجار

الكريمة ، وكله مصنوع أحياناً من الفضة أو الذهب . ووجد كلافيجو ملك التتار جالساً القرفصاء على وسائد من الحرير « تحت مدخل أجمل قصر » قبالة نافورة يندفع منها عامود من الماء الذى انصب فى حوض يتحرك فيه التفاح بلا انقطاع . وكان تيمور يرتدى عباءة من الحرير ويلبس قبعة عالية واسعة مرصعة بالياقوت واللآلىء . وكان هذا العاهل طويل القامة نشيطاً يقظاً ، أما الآن وهو فى سن الثامنة والستين ، فقد كان منحنياً ضعيفاً متوجعاً ، وكاد أن يكون كفيفاً . وكان يستطيع بشق النفس أن يرفع جفنيه ليرى السفير .

وحصل تيمور من الثقافة على ما يمكن أن يحتمله رجل عمل ، فقرأ التاريخ ؛ وجمع الفن والفنانين ، وصادق الشعراء والعلماء ، واستطاع عند الاقتضاء أن يتحلى بأجمل العادات . واستوى غروره مع قدرته ، مما لم يتفوق فيه أحد عليه فى زمانه ، وقدر تيمور على العكس من قيصر ، أن القسوة جزء ضرورى من الاستراتيجية ، ولكنه ، إذا صدقنا ضحاياه ، غالباً ما يبدو آثماً متهماً بالقسوة لمجرد الانتقام . فإنه حتى فى إدارته المدنية كان يسرف فى الحكم بالإعدام ، حتى على محافظ اتبع سياسة الظلم فى المدينة ، أو على جزار تقاضى للحم ثمناً أكثر مما ينبغى(٢٧) . إنه نفذ سياسة القسوة والعنف بوصفها ضرورية لحكم شعب لم يألف القانون بعد . وبرر مذابحه على أنها وسيلة لإرغام القبائل المخالفة للقانون والنظام على اتبـــاع النظام ومتطلبات الأمن فى دولة موحدة قوية . ولكنه مثل سائر الغزاة والفاتحين أحب القوة لذاتها ، وأحب الغنائم والأسلاب من أجل العظمة التى يمكن أن تغطى الغنائم تكاليفها .

وفى ١٤٠٥ شرع فى فتح منغوليا والصين ، يراوده حلم إنشاء دولة تضم نصف العالم ، وتربط بين البحر المتوسط وبحر الصين . وكان جيشه يتألف من مائتى ألف من الرجال الأشداء . ولكنه قضى نحبه فى أترار

Ottar على الحدود الشمالية من مملكته ، وكانت آخر أوامره أن يتابع جيشه سيره ، ولبرهة بسيطة تقدم جواده الأشهب المسرج ، دون أن يمتطيه صاحبه ، وهو يسير الهوينا فى خطى متزنة — تقدم الحشد . ولكن جنوده كانوا على يقين من أن عقل قائدهم وإرادته كانتا تشكلان نصف قوتهم . فعادوا على عجل إلى أوطانهم وهم فى حداد على موت القائد ، وقد كتب لهم الخلاص من هذه المهمة . وشيد له بنوه فى سمرقند مقبرة فخمة هى « مقبرة الأمير » ، وهى عبارة عن برج تعلوه قبة ضخمة بصلية الشكل ، مكسوة واجهتها بالآجر ذى الطـــلاء الأزرق الجميل الفيروزى المائل للخضرة .

وتحطمت إمبراطورية تيمور بموته ، وكادت الأقاليم الغربية أن تنهار فى الحال . وكان لزاماً أن يقنع أولاده بالشرق الأوسط . وكان أعقل أفراد أسرة تيمور هو شاه رخ الذى رخص لابنه أولوج فى أن يحكم بلاد ما وراء النهر من سمرقند ، على حين حكم الوالد نفسه خراسان من هراة ، وتحت حكم خليفتى تيمور هذين أصبحت العاصمتان مركزين متنافسين على ازدهار التتار وثقافتهم ، ازدهاراً وثقافة تعدلان أياً من مثيلاتهما فى أوربا فى ذات العصر (١٤٠٥ — ١٤٤٩) : وكان شاه رخ قائداً قديراً يحب السلام ، وقد شجع الفنون والآداب ، وأسس فى هراة مكتبه ذائعة الصيت . وقال أحد أمراء أسرة تيمور « إن هراة هى جنة الدنيا »(٢٨) . أما أولوح بك فقد رعى رجال العلم ، وشيد فى سمرقند أعظم مرصد فى ذاك العصر . وقال أحد كتاب السير المنمقين من المسلمين :

« كان عالماً ، عادلا ، بارعاً ، نشيطاً ، على درجة كبيرة من المعرفة بعلم الفلك ، على حين أنه فى علوم البلاغة كان شديد التدقيق . وسمت مكانة رجال العلم فى عصره إل ذروتها . وفى الهندسة فسر أدق المسائل . أما فى علم الظواهر الكونيـــة

(الكوزموجرافيا) فقد شرح كتاب بطلميوس . ولم يجلس على العرش ملك مثله قط حتى اليوم . و سجل ملاحظات عن النجوم بالتعاون مع العلماء الأولين . وأسس فى سمرقند كلية لا يمكن أن يوجد لها فى الأقاليم المتاخمة السبعة مثيل من حيث جمالها ومكانتها وقيمتها »(٢٩) .

ولكن هذا النموذج الفريد للرعاية قتل فى ١٤٤٩ بيد ابن غير شرعى له . واستمرت هذه الثقافة العالية التى تميزت بها أسرة تيمور على عهد السلطان « أبو سعيد » والسلطان « حسين بن بيقره » فى هراة حتى نهاية القرن الخامس عشر . وفى ١٥٠١ استولى مغول الأوزبك على سمرقند وبخارى ، وفى ١٥١٠ انتزع الشاه الصفوى هراة وبابور ، وفر آخر حكام أسرة تيمور إلى الهند وأسس هناك أسرة مغولية جعلت من دلهى الإسلامية عاصمة رائعة فى مثل روعة رومه على عهد أسرة مديتشى .

٤ ـ المماليك

١٣٤٠ — ١٥١٧

بينما كان الإسلام فى آسيا يعانى الغزو المتكرر والثورات ، استغل سلاطين المماليك (١٢٥٠ — ١٥١٧) مصر التى سادها استقرار نسبى إذ ذاك . وقضى الموت الأسود على ازدهار البلاد لفترة من الزمن ، ولكن فى أثناء هذه القلبات استمر المماليك يوفقون بين الإدارة القادرة والمصالح الفنية من جهة والاختلاسات والفظائع من جهة أخرى . ومهما يكن من أمر ، فإنه فى ١٣٨١ بدأت بالسلطان الملك الناصر بن برقوق أسرة المماليك البرجية التى ساد عهدها الترف والدسائس والعنف والانحلال الاجتماعى ، وخفضوا قيمة النقد ، حتى على غير عادة الحكومات ، وفرضوا الضرائب الباهظة على ضروريات المعيشة ، وأساءوا استغلال احتكار الدولة

للسكر والفلفل . وفرضوا فى الإسكندرية رسوماً باهظة على تجارة أوربا مع الهند ، مما دعا تجار الغرب إلى البحث عن طريق إلى الهند حول أفريقية . وخسرت مصر على مدى جيل بعد رحلة فاسكوداجاما (١٤٩٨) كثيراً من نصيبها الذى كان يوماً هائلا ، من التجارة بين الشرق والغرب ، وأوقعت هذه الكارثة الاقتصادية البلاد فى حالة من الفقر المدقع إلى درجة أن السلطان سليم الأول لم يلق إلا مقاومة ضعيفة ، حين أنهى حكم المماليك ، وجعل من مصر ولاية عثمانية .

وظلت القاهرة من ١٢٥٨ حتى ١٤٥٣ أجل وأزهى مدن العالم الإسلامى وأكثرها ازدحاماً بالسكان . ووصفها ابن بطوطة وصفاً رائعاً فى ١٣٢٦ ، وقال عنها ابن خلدون الذى زارها ١٣٨٣ إنها « عاصمة الكون ، جنة الدنيا ، مكتظة بجميع أجناس البشر ، عرش الملكية ، مدينة ازدانت بالقصور والدور الفخمة والرهبنات والأديار والكليات ، مضيئة بنجوم العلم والمعرفة ، جنة يرويها النيل حتى ليبدو أن الأرض تقدم ثمارها إلى الناس على سبيل الهدية والتحية »(٣٠) — وربما كان الفلاحون المنهوكون يعترضون على هذا .

وعكست مساجد مصر فى ذاك العصر قساوة الحكم أكثر مما عكست ألوان السماء . فلم يكن هنا إيوانات أو بوابات من الطوب المصقول أو القرميد الملون ، كما كان الحال فى آسيا الإسلامية ، بل كانت هناك جدران حجرية ضخمة جعلت من المسجد قلعة أكثر منه بيتاً للعبادة . وكان مسجد السلطان حسن (١٣٥٦ — ١٣٦٣) عجيبة عصره ، ولا يزال أفخم آثار الفن المملوكى . وذهب المقريزى المؤرخ إلى أنه « فاق كل ما بنى من مساجد(٣١) » ولكنه كان قاهرياً محباً لوطنه . وتروى أسطورة غير مؤكدة كيف أن السلطان جمع مشاهير المهندسين من بلاد كثيرة ، وطلب إليهم أن يذكروا له أعلى صرح على البسيطة ، وأمرهم بأن يشيدوا صرحاً أعلى منه ، فذكروا له قصر خسرو الأول فى مدينة طيسفون (مدينة بابلية على نهر دجلة) الذى يرتفع الجزء الباقى من مدخله ١٠٥ من الأقدام فوق سطح الأرض . فبنى العمال

جدران المسجد الجديد ، بعد أن سرقوا حجارة الأهرام المتهدمة ، على ارتفاع مائة قدم ، وزادوا فوقها إفريزاً (كورنيش) بارتفاع ١٣ قدماً وشيدوا فى أحد الأركان مئذنة بارتفاع ٢٨٠ قدماً . وإن هذا المبنى الشاهق ليترك انطباعاً فى نفوس الغربيين ، ولكنه قل أن يسر الناظرين منهم . ومهما يكن من شىء فإن أهل القاهرة كانوا فخورين به ، إلى حد أنهم ابتدعوا أو استعاروا خرافة تقول بأن السلطان قطع يد المهندس حتى لا يصمم تحفة رائعة تضارع هذه ، وكأن المهندس يصمم بيده ! وكانت مساجد المقابر أكثر فتنة وجذباً للأنظار ، رغم الغرض الذى بنيت من أجله ، وقد بناها سلاطين المماليك خارج أسوار القاهرة لتضم رفاتهم . من ذلك أن السلطان الظاهر برقوق الذى بدأ حياته عبداً شركسياً ، انتهى أمره فى مجد صامت ، راقداً فى مقبرة من أفخم هذه المقابر .

وكان قايتباى أعظم البناة بين المماليك البرجية ، فالبرغم من أن الحرب مع الأتراك أنهكته ، فقد دبر الأموال لتشييد المبانى النفيسة فى مكة والمدينة والقدس ، وجدد فى القاهرة قلعة صلاح الدين والجامع الأزهر ، وشيد نزلا مشهوراً بزخارفه العربية المصنوعة من الحجر ، وبنى داخل العاصمة مسجداً ذا زخارف منسقة . وتوج قايتباى أعماله فى أخريات أيامه ، بمسجد تذكارى من الجرانيت والرخام ، ذى زخرفة رائعة ومئذنة عالية ذات شرفات ؛ وقبة مزينة بنقوش هندسية ، مما جعل هذا المسجد مأثرة من المآثر الأقل قيمة للفن الإسلامى .

وانتشرت الفنون الصغيرة فى عهد المماليك . وصنع النقاشون على العاج والعظام والخشب ألفاً من المنتجات الجميلة ، من صناديق الأقلام إلى المنابر ، وهى منتجات كان يتخيلها الذوق ، ويقوم على تنفيذها العمل المتواصل والمهارة . وحسبك فى هذا أن تلقى نظرة على منبر مسجد قايتباى خارج أسوار المدينة فى متحف فكتوريا وألبرت . وبلغ التطعيم بالذهب والفضة

ذروته أيام هذه الأسرات الدموية . أما مصانع الخزف المصرى التى كانت قد ابتدعت ألفاً من البدع والأشياء الغريبة فى آلاف السنين للسحيقة فى القدم ، فإنها أخرجت الآن للعالم الزجاج المطلى بالمينا ومصابيح المساجد والكؤوس والزهريات المزدانة بالصور أو الزخرفة التشكيلية من المينا الملونة ، والمرصعة بالذهب أحياناً . وبمثل هذه الطرق وبكثير غيرها لا يحصيها العد ، خلع الفنانون المسلمون على الجمال شكلا خالداً ، وبذلك عوضوا عن وحشية ملوكهم أو كفروا عنها .

٥ — العثمانيون

١٢٨٨ — ١٥١٧

يبدأ التاريخ بعد اختفاء الأصول . فلا أحد يعرف أين نشأ الأتراك . « فذهب بعض الناس إلى أنهم كانوا قبيلة فنلندية أوجرية Finno-Ugric (شعب أسيوى شرقى الأورال) من الهون ، وأن اسمهم يعنى « خوذة » وهي فى إحدى اللهجات التركية Durko . وقد شكلوا لغاتهم من اللغتين المغولية والصينية ، وأدخلوا بعد ذلك ألفاظاً فارسية أو عربية ، وهـذه اللهجات التركية هى الوسيلة الوحيدة لتصنيف المتكلمين منهم بوصفهم أتراكاً . واتخذت واحدة من هذه العشائر اسمها من اسم زعيمها سلجوق . ونمت بالنصر تلو النصر ، وتكاثرت سلالتها ، وحكموا فى القرن الثالث عشر فارس والعراق وسوريا وآسيا الصغرى وفرت عشرة أخرى من أقرباء العشرة الأولى ، بقيادة زعيمها طغرل ،أر، من خراسان فى نفس القرن ، حتى لا يكتسحها طوفان المغول . واستخدمها سلجوق أمير قونيه بآسيا الصغرى ، فى الأعمال الحربية ، وأقطعها جزءاً من الأرض لرعى ماشيتها .

وفى ١٢٨٨ (؟) مات أرطغرل ، فاختير ابنه عثمان ، وهو إذ ذاك فى الثلاثين من عمره ، ليخلف أباه ، ومنه اشتق اسم « العثمانيين » . ولم

يطلقوا على أنفسهم اسم الأتراك قبل القرن التاسع عشر ، بل أطلقوه على الشعوب شبه الهمجية فى تركستان وخراسان . وفى ١٢٩٠ رأى عثمان أن السلجوقيين أضعف من أن يقفوا فى طريقه ، فأعلن نفسه أميراً مستقلا على ولاية صغيرة فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى ، وفى ١٢٩٩ تقدم بقواته غرباً إلى يني شبر . ولم يكن عثمان قائداً عظيماً ، ولكنه كان مثابراً صبوراً ، وكان جيشه صغيراً ، ولكنه مكون من رجال ألفوا فى ديارهم ركوب الخيل أكثر مما ألفوا السير على الأقدام ، رجال آرادوا أن يغامروا بحياتهم الشاقة من أجل الأرض أو الذهب أو النساء أو السلطان ، وكانت تقع بينهم وبين بحر مرمرة مدن بيزنطية ناعسة سيئة الحكم هزيلة الدفاع . فحاصر عثمان واحدة منها وهى بروسه ، وأخفق أول الأمر فى الاستيلاء عليها ، ولكنه عاود الكرة بعد الكرة ، حتى استسلمت المدينة أخيراً لابنه أورخان ، فى الوقت الذى كان يرقد فيه عثمان على فراش الموت فى يني شبر (١٣٢٦) :

واتخذ أورخان من بروسه ، التى تقدست برفات أبيه ، عاصمة جديدة للعثمانيين . وساقته الرغبة فى المزيد من السلطان إلى البحر المتوسط ، المركز العتيق للتجارة والثروة والمدنية . وفى نفس العام الذى سقطت فيه بروسه ، انتزع نيقوميديا التى صارت فيما بعد أزميد ، وفى ١٣٣٠ استولى على نيقيه التى أصبحت أزنيق ، وفى ١٣٣٦ استولى على برجاموم التى أصبحت برجامه . وكانت تلك المدن العريقة فى القدم والتى تفوح منها رائحة التاريخ ، مراكز للحرف والتجارة ، وقد اعتمدت فى المواد الغذائية والأسواق اللازمة لها على الجماعات الزراعية المحيطة بها والتى كان العثمانيون قد استولوا عليها فى ذلك الحين ، وكان على هذه المدن أن تعيش على هذه البقاع الداخلية أو أن تموت جوعاً . فلم تقاوم طويلا ، لأنها كانت قد عانت من ظلم حكامها البيزنطيين ، كما سمعت بأن أورخان لم يثقل الكواهل بالضرائب ، وأنه رخص فى حرية العقيدة — وكان كثير من هؤلاء المسيحيين فى الشرق الأدنى هراطقة مرهقين :

نساطرة أو من القائلين بأن للمسيح طبيعة واحدة . وسرعان ما ارتضى العقيدة الإسلامية جزء كبير من الأراضى المفتوحة ، وهكذا تحل الحرب المشاكل اللاهوتية ، على حين كانت هذه المشاكل قبل الحرب تقف عاجزة محيرة . ومذ وسع أورخان ملكه على هذا الشكل ، فقد اتخذ لنفسه لقب سلطان العثمانيين . وعقد أباطرة بيزنطة أواصر السلام معه ، واستأجروا جنوده ، وسمحوا لابنه سليمان فى بناء معاقل على أرض أوربا . وقضى أورخان نحبه وهو فى الواحدة والسبعين من عمره ، بعد أن خلد ذكراه بين جوانح شعبه .

وكون خلفاؤه من بعده أسرة قل أن يوجد لها فى التاريخ مثيل ، فى هذا المزيج من القوة الحربية والمهارة والمقدرة الإدارية والقسوة الوحشية ، والإخلاص الرفيع للآداب والعلوم والفنون . وكان مراد الأول أقل أفراد هذه الأسرة جاذبية ، ولما كان أمياً فإنه كان يبصم بأصابعه المغموسة فى المداد على الوثائق ، على غرار القتلة المغمورين . ولما قاد ابنه صاوندجى ثورة إجرامية فاشلة ضده ، فقأ مراد عينيه وقطع رأسه ، وأرغم آباء الثوار على قطع رءوس أبنائهم(٣٢) . ودرب مراد جيشاً لا يكاد يقهر ، وفتح معظم أراضى البلقان ، ويسر خضوعهم له بأن أقام لهم حكومة أقدر من تلك التى عرفوها على عهد السيطرة المسيحية .

وورث بايزيد الأول عرش أبيه فى ميدان القتال فى قوصوه (١٣٨٩) . ذلك أنه بعد أن قاد الجيش إلى النصر أمر بإعدام أخيه يعقوب الذى كان قد قاتل ببسالة فى ذاك اليوم العصيب . وأصبح قتل الإخوة على هذا النحو قاعدة منتظمة عند سلاطين آل عثمان بعد الجلوس على العرش ، طبقاً للمبدأ القائل بأن التمرد على الحكومة يؤدى إلى التمزق ، إلى حد أنه يجدر التخلص فى أول فرصة ممكنة ممن يحتمل أن يطالبوا بالعرش . وأحرز بايزيد لقب

« بلدرم أى الصاعقة » ، لسرعته فى خططه الحربية ، ولكن أعوزه فن الحكم الذى تميز به أبوه ، وأضاع بعض طاقته الجبارة فى المغامرات النسائية ، وقدم ستيفن لازارفتش ، حاكم الصرب من قبل السلطان ، أخته لتنضم إلى حريم السلطان ، وأصبحت هذه السيدة دسبوانا زوجته الأثيرة لديه ، وغرست فيه الولع بشرب الخمر وإقامة المآدب السخية ، وربما أضعفت عن غير عمد حيويته كرجل . وتألق غروره وكبرياؤه حتى سقوطه . وبعد أن هزم بايزيد فرسان أوربا فى نيقوبوليس ، أطلق سراح كونت نفرز Nevers مع دعوة ممتازة للمبارزة ، رواها أو عدل فيها فروسار Froissor ، قال :

« أى جون ، إنى أعلم جيداً أنك سيد عظيم فى بلدك ، وأنك ابن سيد عظيم . أنت شاب يافع ، وربما تلاقى بعض اللوم أو العار لأنك وقعت فى هذه المغامرة فى بداية عهدك بالفروسية ، وأنك تخلصاً من اللوم وإنقاذاً لشرفك ، ربما تحشد قوة من الرجال لمحاربتى ، ولو ساورنى الشك أو الخوف قبل رحيلك ، لأجبرتك على أن تقسم بشريعتك وعقيـــدتك ، أنك لا أنت ولا أحد من زمرتك ، سوف تشهر السلاح ضدى ولكنى لن ألزمك أو ألزم أحداً من أتباعك بمثل هذا القسم أو الوعد . ولكنى سأفعل ذلك عندما تعود إلى وطنك وإلى مسراتك ، لتجمع من القوة ما تشاء ، ولا تدخر وسعاً ، واخرج إلى قتالى ، ولسوف تجدنى دوماً على أهبة الاستعداد لاستقبالك واستقبال عصبتك . . . وأطلع من تشاء على هذا الذى أقول لك ، فإنى قادر على القتال ، ومستعد على الدوام للتوغل فى العالم المسيحى»(٣٣) .

ولما أسر تيمورلنك السلطان بايزيد عامله بكل إجلال واحترام ؛

على الرغم من الرسائل المهينة التى كانا قد تبادلاها على مدى عام ، وأمر تيمور بفك أغلال السلطان وأجلسه إلى جانبه ، وأكد له أنه سيبقى على حياته ، وأصدر تعليماته بأن تنصب ثلاث خيام فخمة لحاشيته ، ولكن عندما حاول بايزيد الهرب ، احتجز فى غرفة ذات نوافذ مسدودة بالحواجز ، وقد بالغت الأساطير فقالت إنها قفص من حديد . ومرض بايزيد ، فدعا تيمورلنك أحسن الأطباء لمعالجته ، وأرسل إليه السيدة دسپوانا لتسهر على رعايته ومواساته ؛ ولم تجد هذه المساعدات شيئاً لبعث القوى الحيوية فى السلطان المحطم ومات بايزيد بعد عام من هزيمته .

وأعاد ابنه محمد الأول تنظيم حكومة العثمانيين وقوتهم ، وعلى الرغم من أنه فقأ عينى أحد المطالبين بالعرش وقتل آخر ، فإنه اكتسب لقب السيد المهذب ، بفضل سلوكه الكيس اللطيف وحكمه العادل ، وسنوات السلم العشر التى منحها للعالم المسيحى ؛ وكان لمراد الثانى مثل هذه المشارب ، فآثر الشعر على الحرب ، ولكن عندما نصبت القسطنطينية مزاحماً له ليخلعه ، ونقضت المجر عهد السلم ، أثبت مراد الثانى فى وارنه (١٤٤٤) أنه قائد كأحسن ما يكون القواد ؛ ثم عاد إلى مغنيسيا فى آسيا الصغرى ، حيث عقد مرتين فى كل أسبوع اجتماعاً للشعراء والعلماء ، وقرأ الشعر وتحدث فى العلوم والفلسفة . واقتضت ثورة فى أدرنه عودته إلى أوربا ، فأخمدها ، وقهر هونياد فى قوصوه . وعندما مات فى ١٤٥١ ، بعد أن قضى فى الحكم ثلاثين عاماً ، وضعه المؤرخون المسيحيون فى مصاف أعظم حكام عصره ؛ وقد أمر فى وصيته بأن يدفن فى بروسه فى مصلى متواضع غير مسقوف ، « حتى تنزل عليه رحمة الله وبركاته مع شروق الشمس والقمر ، وسقوط المطر والندى على جدته »(٣٤) .

وتساوى محمد الثانى مع أبيه فى الثقافة والفتوحات والفطنة السياسية وطول الحكم ، وليس فى العدل ولا فى النبل . فنقض المعاهدات الوثيقة ،

ولطخ انتصاراته بالمذابح غير الضرورية . وكان يتسم فى مفاوضـــاته واستراتيجيته بدهاء الشرق . وسئل يوماً عن خططه فأجاب : « لو أن شعرة من لحيتى عرفت لانتزعتها »(٣٥) . وتحدث السلطان بخمس لغات ، وكان واسع الاطلاع فى عديد من الآداب ، بارعا فى الرياضيات والهندسة ورعى الفنون ، وأجرى معاشات على ثلاثين شاعراً عثمانياً ، وبعث بالهدايا الملكية إلى شعراء فى فارس والهند . وجاء بعده فى المرتبة الثانية كنصير للأدب والفن وزيره الأكبر محمود باشا ، فأعان هو وسيده كثيراً من الكليات والمؤسسات الدينية ، حتى أطلق على السلطان « أبو الأعمال الخيرية » . وكان محمد أيضاً « أبا الانتصارات » ، فقد خرت القسطنطينية له ولمدافعه ، وبفضل مدافعه أصبح البحر الأسود بحيرة عثمانية ، وأمام جيوشه ودبلوماسيته وقعت دول البلقان فى أسر العبودية . ولكن هذا الفاتح الذى لا يقاوم ، لم يتغلب على نفسه أو يكبح جماحها ؛ فما أن بلغ الخمسين حتى كان قد أنهك قواه بكل ألوان الإفراط الجنسى ، ولم تجد العقاقير نفعاً فى تجديد حيويته ، حتى أدرجه حريمه آخر الأمر فى عداد الأغوات . وقضى نحبه فى سن الواحدة والخمسين فى اللحظة التى بدا فيها أن جيشه على وشك غزو إيطاليا وضمها إلى العالم الإسلامى .

وأدى النزاع بين أبنائه إلى تولى بايزيد الثانى العرش . ولم يكن بالسلطان الجديد نزوع إلى الحرب ، ولكن عندما استولت البندقية على قبرص وتحدت سيطرة الأتراك على شرقى البحر المتوسط ، أفاق السلطان وضلل مخادعيه بميثاق للسلام ، حتى بنى أسطولا من ٢٧٠ سفينة ودمر أسطول البندقية بعيداً عن شواطئ اليونان . وأغار جيش تركى على شمال إيطاليا حتى وصل غرباً إلى فيشنزا (١٥٠٢) . فتوسلت البندقية لعقـــد الصلح ومنحها بايزيد شروطاً سخية ، ثم ركن إلى الشعر والفلسفة من

جديد . وخلعه ابنه سليم وجلس على العرش (١٥١٢) ولم يابث بايزيد أن مات ، وقيل إنه مات مسموماً .

إن التاريخ ، من بعض الوجوه ، ليس إلا تعاقباً لموضوعات متعارضة ؛ فإن الطباع والأشكال السائدة فى عصر ينكرها ويبرأ منها العصر الذى يليه ، والذى يضيق ذرعاً بالتقاليد ، ويتحرق لهفاً إلى التجديد : فالكلاسيكية تنجب الرومانتيكية ، وهذه تلد الواقعية ، وهذه تأتى بالتأثرية ، كما تدعو فترة الحرب إلى عقد (عشر سنوات) من السلم كما أن السلم الذى يطول أمده يدعو إلى الحرب العدوانية . فقد ازدرى سليم الأول بسياسة السلم التى انتهجها والده . وكان سليم قوى الجسم قوى الإرادة ، عزوفاً عن المسرات وأسباب المتعة ، ولوعا بالصيد والقنص وحياة المعسكر ، واستحق لقب « العبوس » لأنه شنق تسعة من ذوى قرباه منعاً لأية فتنة أو تمرد ، وشن الحرب تلو الحرب من أجل الفتح والغزو . ولم تزعجه إغارة اسماعيل الصفوى شاه فارس على الحدود التركية . فقطع سليم على نفسه عهداً بأن يشيد ثلاثة مساجد ضخمة فى القدس ، وبودا وروميه ، إذا من الله عليه بالنصر على الفرس(٣٦) . وإذ أثار النعرة الدينية فى شعبه إلى حد القتال . فإنه تقدم نحو اسماعيل ، واستولى على تبريز ، وجعل من شمالى أرض الجزيرة ولاية عثمانية . وفى ١٥١٥ حول مدافعه ورجاله الانكشارية إلى المماليك ، وضم سوريا وبلاد العرب ومصر إلى مملكته (١٥١٧) ، وحمل من القاهرة إلى القسطنطينية أسيراً مكرماً هو « خليفة المسلمين » وهو أكبر مقام دينى عند المسلمين . وأصبح سلاطين العثمانيين بعد ذلك — مثل هنرى الثامن — أصحاب السلطة الدينية كما كانوا أصحاب السلطة الزمنية (سادة الدين والدولة) .

وفى أوج مجد قواته وعظمتها ، جهز سليم لغزو رودس والعالم المسيحى . فلما تمت كل الاستعدادات ، أصيب بالطاعون فقضى عليه (١٥٢٠) . وأمر ليو العاشر الذى كان قد ارتعد فرقاً لتقدم سليم أكثر مما ارتعد لظهور مارتن لوثر — أمر الكنائس المسيحية بإقامة الصلوات شكراً لله .

٦ ـ الأدب الإسلامى

١٤٠٠ ـ ١٥٢٠

نظم سليم العبوس نفسه قصائد من الشعر المقفى ، وورّث ابنه سليمان القانونى ديواناً ملكياً ضم قصائده المجموعة ، مثل ما ورثه إمبراطورية تمتد من الفرات إلى الدانوب والنيل ، وإنك لترى اثنى عشر من السلاطين وكثيراً من الأمراء ، من بينهم الأمير جم الذى أجزل أخوه الثانى العطاء للوك المسيحية وبابواتها ليحتجزوا الأمير فى معتقل لائق ، نقول إنك لترى هؤلاء السلاطين والأمراء بين ٢٢٠٠ شاعر عثمانى طبقت شهرتهم الآفاق فى القرون الستة الأخيرة(٣٧) . واقتبس معظم هؤلاء الشعراء من الفرس أشكال شعرهم وأفكاره ، وفى بعض الأحيان لغته ، وواصلوا ، فى معين من القصيد لا ينضب ، تمجيد عظمة الله ، وحكمة الشاه أو السلطان ، وارتعاد شجرة السرو حسداً عند ما يقع نظرها على السيقان النحيلة الناصعة البياض للحبيبة . وقد ألفنا الآن نحن فى الغرب هذه المفاتن إلى حد أننا لم نعد نهتز لهذه التشبيهات الهائلة . ولكن « الأتراك الفظعاء » الذين كانت نساؤهم متدثرات من الأنف إلى أخمص القدم بشكل كله إغراء ، اهتزوا إلى الأعماق بهذه الإيحاءات الشعرية ، وهذا الشعر الذى غيرت ترجمته من طبيعته ، والذى لا يؤثر فينا ولا يحرك فينا شعرة ، كان يحفزهم إلى التقى والورع وإلى تعدد الزوجات وإلى الحرب .

وإنا لنختار فى خيال ساذج ، من بين ألف من الموتى الخالدين ، ثلاثة أسماء لا تزال غريبة غير مألوفة لدى المجتمعات المحلية فى الغرب . من هؤلاء أحمدى ، وهو من سيواس (المتوفى ١٤١٣) الذى نهل أول ما نهل من الأستاذ الفارسى النظامى ، وقد كتب أحمدى « اسكندرنامه » أى كتاب الإسكندر ، وهو ملحمة ضخمة فى أسلوب قوى غير مصقول ، لم تتناول

قصة غزو الفرس للإسكندر فحسب ، ولكن تضمنت كذلك تاريخ الشرق الأدنى وديانته وعلومه وفلسفته من أقدم العصور إلى عهد بايزيد الأول : ويجدر بنا أن نكف عن الاقتباس لأن الترجمة الإنجليزية أشبه شيء بكابوس يجثم على الصدر . أما شعر أحمد باشا (المتوفى ١٤٩٦) فقد ابتهج به السلطان محمد الثانى إلى حد أنه عين الشاعر وزيراً له . ولكن الشاعر وقع فى غرام خادم جميل من حاشية الإمبراطور الذى كان به مثل هذا الميل ، فما كان منه إلا أن أمر بإعدام الشاعر . وأرسل أحمد إلى مولاه قصيدة غنائية تفيض رقة ، حتى أن محمداً وهبه الغلام ، ولكنه نفى الاثنين إلى بروسه(٣٨) . وهناك آوى أحمد إلى داره شاعراً شاباً قدر له فى الحال أن يبزه ، ونظم نجاتى (المتوفى ١٥٠٨) ، وكان اسمه الحقيقى عيسى — نظم قصيدة غنائية مدح محمد الثانى ، وربطها فى عمامة صفى السلطان وزميله فى لعبة الشطرنج ، ودفع فضول محمد الثانى به إلى الوقوع فى الشرك ، وفض اللفيفة وقرأ القصيدة ، واستدعى ناظمها وعينه موظفاً فى القصر المكى . وأبقاه بايزيد الثانى ناعماً بالحظوة والثراء . وكتب نجاتى الذى انتصر بشكل بطولى على الازدهار والنجاح ، بعض القصائد الغنائية التى تستحق أعظم الثناء والتقدير فى الأدب العثمانى .

ومهما يكن من أمر ، فإن فطاحل الشعر الإسلامى كانوا لا يزالون من الفرس . وكان بلاط حسين ببقرة فى هراة يعج بالعنادل المغردة ، حتى أن وزيره مير على شير نواى شكا قائلا : « لو أنك مددت قدميك لرفست بهما ظهر شاعر » : فرد عليه شاعر آخر بقوله : « وكذلك تفعل أنت لو سحبتهما(٣٩) » . وكان مير على شير (المتوفى ١٥٠١) ، إلى جانب معاونته فى حكم خراسان ، ورعايته للأدب والفن ، وذيوع صيته فى رسم المنمنمات والتلحين — نقول كان شاعراً فحلا ، فكان ميسيناس وهوراس زمانه فى وقت معاً . ومن فيض رعايته المستنيرة استمد العون والسلوى المصوران بهزاد

وشاه مظفر ، والموسيقيون قول محمود وشائقى نائى وحسين يودى ، والشاعر الإسلامى الكبير فى القرن الخامس عشر ملا نور الدين عبد الرحمن جامى (المتوفى ١٤٩٢) .

ووجد جامى فى حياته الطويلة الهادئة فسحة من الوقت ليكتسب شهرته عالماً ومتصوفاً وشاعراً . فشرح باعتباره من رجال الصوفية ، فى نثر رقيق ، الفكرة الصوفية القديمة ، وهى أن الاتحاد البهيج بين النفس البشرية وبين الحبيب ، وهو الله سبحانه وتعالى ، لا يأتى إلا إذا أيقنت النفس أن الإنسان ليس إلا وهماً وسراباً ، وأن كل الأشياء فى الدنيا هى مجموع من الأشباح العابرة التى تتلاشى فى ضباب الفناء . ومعظم قصائد جامى عبارة عن تصوف منظوم شعراً ، ممزوج بشىء من الحسية الجذابة . ويقص علينا سلامان وأبسال حكاية طريفة تشير إلى أن الحب الإلهى يسمو على الحب الدنيوى . وسلمان هو ابن شاه يون (أيونيا) وقد ولد من غير أم (وهذا شىء أصعب بكثير من التوالد العذرى) وقد تولت تربيته الأميرة الجميلة أبسال التى افتتنت به حين بلغ الرابعة عشرة من العمر ، وقد غزت قلبه وأسرته بما اصطنعت من أسباب التجميل والتطرية .

« أحاطت سواد عينيها بسواد الإثمد
حتى تحوله إلى ليل وهو فى وضح النهار ،
وزينت وزججت الحواجب فوقهما .
لتصيبه إذا ضل هناك ، وشعرها الذى يتضوع منه المسك
صففته فى لفائف أفعوانية كثيرة
كمن فيها « الإغراء » فوق خدها
الذى أضاءت ورده بندى قرمزى
ووضعت هناك حبة دقيقة من المسك
لتوقع فى الشرك طائر هذا القلب الحبيب

وقد نمر أحياناً فنطلق ضحكة تكسر بها
ياقوتة شفتيها اللتين تحفظان بينهما اللآلى
أو تنهض وكأنها على عجل ، فتقعقع خلاخيلها الذهبية ،
وعلى نداءاتها المفاجئة : تأتى
تحت قدميها الفضيتين بالتاج الذهبى »(٤٠) .

وهو تاج الأمير وريث العرش بلا منازع ، ويستسلم الأمير دون عناء لهذه المغريات ، ولبعض الوقت ينعم الاثنان — الولد والسيدة فى حب مشبوب . فيؤنب الملك هذا الشاب على مثل هذا العبث ، ويأمره أن ينجو بنفسه إلى الحرب والحكم . ولكن سلمان بدلا من ذلك يهرب مع أبسال على ظهر جمل ، « وكأنهما لوزتان حلوتان فى قشرة واحدة » ، حتى إذا وصلا إلى البحر صنعا قارباً وسارا به « شهراً » وأتيا إلى جزيرة مكسوة بالخضرة ، مليئة بالأزهار العطرة والطيور المغردة ، والثمار والفاكهة التى تتساقط تحت قدميهما بكثرة . ولكن فى جنة عدن هذه يتحرك ضمير الأمير فيؤنبه ، ويفكر فى مهام الملك التى أغفلها ، ويحث الأمير محبوبته أبسال على العودة معه إلى يون ، ويحاول أن يدرب نفسه على الاضطلاع بأعباء الملك ، ولكنه موزع بين الواجب والجمال ، إلى حد أنه كاد آخر الأمر أن يجن ، وانضم إلى أبسال فى محاولة للانتحار ، فبنيا محرقة ، وقفزا إليها ، ويد كل منهما فى يد الآخر ، وأنت النيران على أبسال ، ولكن سلمان يخرج سالماً ولم يحترق . والآن وقد تطهرت نفسه ، فإنه يرث العرش ويشرفه . وكل هذا مجاز يفسره جامى بأن الملك هو الله ، وسلمان هو النفس البشرية ، وأبسال هى نشوة الشهوة ، والجزيرة السعيدة هى جنة الشيطان التى تضل فيها النفس عن مصيرها الإلهى ، أما المحرقة فهى نار تجربة الحياة ، التى تتلاشى فيها الرغبات الشهوانية ، أما العرش الذى ترقى إليه النفس المطهرة فهو عرش الله . ومن العسير أن نعتقد أن شاعراً استطاع أن يصور مفاتن

المرأة بهذا الشكل الحساس ، يمكن أن يطالب إلينا اجتنابها اللهم إلا بين الفينة والفينة .

وفى جرأة عوض عنها ما خضت عنه تجاسر جامى فعالج ، شعراً ، من جديد ، الموضوعات الأثيرة لدى اثنى عشر من الشعراء قبله : يوسف وزليخة ، ليلى والمجنون . وفى تصدير فصيح يعيد تقرير النظرية الصوفية : نظرية الجمال الإلهى والجمال الدنيوى :

فى « القفر البدائى » ، حيث لم تعط الحياة أية علامة على وجودها ، ورقد الكون مختبئاً منكراً نفسه ، كان ثمة شىء . إنه الجمال المطلق يظهر نفسه لنفسه فقط ، وبنوره هو وحده . مثل أجمل النساء فى غرفة زفافها المحفوفة بالأسرار ، كان ثوبها نقياً لا تشويه أية شائبة ، ولم تعكس أية مرآة وجهها ، ولم يمر المشط قط بخصلات شعرها ، ولم يحرك النسيم العطر قط شعرة واحدة منها ، ولم يأو قط أى عندليب على صفحة خدها الوردى . . ولكن الجمال لا يطيق أن يبقى مجهولا . انظر إلى زهرة التوليب فوق قمة الجبل ، وهى تنفذ فى الصخر فرعها الغض لأول بسمة من بسمات الربيع . . كذلك الجمال الأبدى أتى من الأماكن المقدسة للأسرار ليشع فى كل الآفاق وفى كل النفوس ، وثمة شعاع واحد انطلق من هذا الجمال الأبدى ، واخترق الأرض والسموات ، ومن ثم تكشف وظهر فى مرآة المخلوقات ، وأصبحت كل ذرات الكون بمثابة مرايا تعكس كل منها ناحية من نواحى العظمة الأبدية . وسقط شىء من تألقها على الوردة والعندليب ، فأصابهما شىء من جنون الحب البائس واتقدت حماستهما ناراً ، وجاء ألف من الفراشات لتهلك فى اللهب . وهى التى أضفت على قمر كنعان لمعانه الساطع الذى أصاب زليخة بالجنون (٤١) .

إن جامى يهبط من علياء سمائه ليصف جمال الأميرة زليخة فى تكرار وإسهاب يتقدان حماسة ، حتى إلى حد وصف « حصن العفة والملمس الحرام فيها » .

وكان نهداها بمثابة كرتين من نور بالغ النقاوة أو فتاعتين تقفزان حديثاً من نافورة كافور ، أو رمانتين صغيرتين تنموان على غصن واحد ، لا يستطيع أى طامع جرىء أن يمسهما بأصبعه(٤٢) .

إن زليخة ترى يوسف فى المنام ، فتقع فى غرامه لأول ظهوره . ولكن أباها يزوجها من وزيره بوتيفار . ثم ترى يوسف بشخصه رأى العين معروضاً للبيع فى سوق الرقيق فتشتريه وتغريه ، ولكنه يرفض صداقتها والتفاهم معها ، فيصيبها الهزال ، ويموت الوزير ، ويحل يوسف محله ، ويتزوج زليخة ، وسرعان ما ينتاب الهزال الاثنين ، إلى حد الموت آخر الأمر . إن حب الله فقط هو الحقيقة وهو الحياة ، إنها قصة قديمة ، ولكن من ذا الذى يستطيع أن يركن إلى هذه المواعظ ؟

٧ ــ الفن فى آسيا الإسلامية

فى كل البقاع التى وصل إليها الإسلام من غرناطه إلى دلهى وسمرقند ، استخدم الملوك والنبلاء العباقرة والعبيد لبناء المساجد والمقابر ، والرسم على الآجر وإحراقه ، ونسج الحرائر والسجاجيد وصبغها ، وطرق المعادن . والحفر على الخشب والعاج ، وزخرفة المخطوطات بالألوان المائية والخط . واستمسك الخانات والتيموريون والعثمانيون والمماليك ، وحتى الأسرات الصغيرة التى حكمت الأجزاء الضعيفة من العالم الإسلامى ، استمسكوا جميعاً بالتقليد الشرقى ، وهو تلطيف السلب بالشعر ، وتلطيف القتل بالفن .

وفى قرى الريف وفى قصـــور المدن أخرجت الثروة جمالا ، ونعمت قلة محظوظة بقرب أشياء تغرى اليد بلمسها ، وتغرى العين بالنظر إليها .

وكان المسجد لا يزال مجمع الفن الإسلامى . فالطوب والقرميد أكسبا المئذنة جمالا شاعرياً ، وأبواب الخزف المزخرف جعلت من ضوء الشمس ألواناً براقة ، وأبرز المنـــبر الأشكال المتعرجة المحفورة أو التطعيم المعقد فى الخشب ، ووجهت فخامة المحراب قلوب المصلين إلى مكة . وقدمت المصـعات والثريات مشبكاتها المعدنية إجلالا وولاء لله . وجعل السجاد من الأرض البلاط مكاناً ليناً وهيأ لركبتى المصلى سجوداً وثيراً . وغلفت المصاحف المذهبة بالحرير الثمين . وعجب كلافيجو « من المساجد الجميلة المزدانة بالآجر الأزرق والذهبى[٤٣] » ، وفى أصفهان أقام أحد وزراء أولجايتو فى مسجد الجمعة محراباً بات فيه الجص العادى من مفاتن الزخرفة العربية والنقش . وشيد أولجايتو نفسه فى « سلطانية » ضريحا فخما (١٣١٣) أراد أن ينقل إليه رفات على والحسين (كان الخان أولجايتو شيعيا) . ولكن خطته أخفقت إخفاقاً محموداً ، فإن عظام الخان ووريت الترب فى هذا الضريح المهيب . وتتسم أطلال المسجد فى فارامين (١٣٢٦) بالضخامة والجلال .

وأولع تيمور بالبناء ، وسرق أفكار العمارة ، كما سرق الفضة والذهب من ضحايا أسلحته . وآثر الضخامة بوصفه فاتحاً ، وكأنما هى ترمز إلى إمبراطوريته وإلى إرادته ، ومثل محدثى الثراء أغرم باللون وأسرف فى الزخرفة . وافتتن بالآجر الأزرق المطلى فى هراة ، فاستقدم خزافين من فارس إلى سمرقند ليكسوا بالطوب اللامع واجهات المساجد والقصور فى عاصمته ، وسرعان ما أشرقت المدينة وتألقت بالخزف الفخم . ولحظ فى دمشق قبة بصلية الشكل تنبعج فوق القاعدة ثم يستدق طرفها إلى أعلى حتى يصبح مدببا ، فأمر مهندسيه أن يأخذوا تصميمها وأبعادها قبل أن

تسقط فى الحريق العام ، وتوج سمرقند بمثل هذه القباب ، ونشر هذا الطراز بين الهند وروسيا ، حتى إنك لتراه سائداً من تاج محل إلى الميدان الأحمر . ولما عاد من الهند أحضر معه الفنانين والصناع المهرة : فأقاموا له فى ثلاثة أشهر مسجداً ضخماً هو « مسجد الملك » له بوابة ارتفاعها مائة قدم ، وسقف مرفوع على ٤٨٠ عموداً من الحجر . وشيد لأخته « تشوشوك بيكا » ضريحاً لتدفن فيه ، أصبح تحفة العمارة فى عصره(٤٤) . وعندما أمر ببناء مسجد تخليداً لذكرى زوجته الأثيرة لديه ، بيبى خانون ، أشرف على البناء بنفسه ، وألقى باللحوم إلى العمال فى الحفائر ، ونفح الصناع المهرة المجتهدين بالنقود ، وحثهم أو أجبرهم على العمل ليل نهار ، حتى أقبل الشتاء وتوقف البناء ، وأخمدت حماسته .

وأنجز خلفاؤه فنا أكثر نضجا . ففى « مشهد » على الطريق بين طهران وسمرقند استخدمت « جوهر شاد » زوجة « شاه رخ » المغامرة ، المهندس المعمارى قوام الدين فى بناء المسجد الذى يحمل اسمها (١٤١٨) ، وهو أروع نتاج الهندسة الإسلامية الفارسية وأغناه بالألوان(٤٥) . وفيه تحيط المآذن المزودة بالفوانيس الرائعة بالضريح وكأنها تحرسه ، وتؤدى أربعة مداخل فخمة إلى فناء رئيسى ، كسيت واجهة كل منها بآجر من الخزف المزخرف ، « لا مثيل لها من قبل ومن بعد »(٤٦) — تحفة الزمان — تتحدى اللون فى مائة شكل من الزخرفة العربية « الأرابسك » والرسوم الهندسية والحركات الزهرية والخط الكوفى الفخم ، وأضفت شمس فارس على هذا مزيداً من البريق والتألق . وفوق الجزء الجنوبى الغربى من الرواق ذى الأعمدة المؤدى إلى حرم المسجد ارتفعت مئذنة من الآجر الأزرق تناطح السماء ، وعلى الباب بحروف بيضاء على أرضية زرقاء نقش إهداء الملكة ، وهو إهداء يفيض فخراً وتقى :

« إن عظمتها العريقة فى المجد ، شمس سماء الطهارة والعفة ...

جوهر شاد ، خلد الله عظمتها وأدام طهارتها ! من مالها الخاص ، ولخير آخرتها ، ومن أجل اليوم الذى يحاسب فيه المرء على ما قدمت يداه ، تقرباً إلى الله وشكراً له سبحانه . . . شيدت هذا المسجد الجامع العظيم ، هذا البيت المقدس ، فى عهد السلطان المعظم ، سيد الحكام ، وللد نائب الملك ، شاه رخ ، أدام الله ملكه وإمبراطوريته ! وزاد على أهل الأرض صلاحه وعدله وكرمه !(٤٧) .

ولم يكن مسجد جوهر شاد إلا واحداً من جملة مبان جعلت من مشهد رومة « المذهب الشيعى » ، وهناك على مدى ثلاثين جيلا ، شيد أتباع الإمام الرضا مجموعة كبيرة من العمائر تأخذ فخامتها بالألباب ، ذوات مآذن جميلة وقباب فاخرة ، ومداخل كسيت واجهاتها بالآجر اللامع أو بصفائح الفضة أو الذهب ، وساحات تعكس فسيفساؤها الزرقاء والبيضاء أو خزفها المزخرف أشعة الشمس . وهنا فى ها المنظر العريض الخلاب بأشكاله وألوانه ، استخدم الفن الفارسى كل سحره ليمجد أحد أولياء الله الصالحين ويرهب الحاج الزائر حتى يعمر قلبه بالتقوى والإيمان .

ومن أذربيجان إلى أفغانستان ارتفع فى هذا العصر فى أرض الإسلام ألف مسجد : ذلك أن بيوت العبادة لها من القيمة الكبيرة لدى الإنسان ما لفاكهة الأرض ، ولكن عندنا نحن أهل الغرب، المحصورين فى خلايا العقل ، لا تعنى هذه الأضرحة إلا أسماء جوفاء ، بل قد يزعجنا أن نحييها ونكرمها بتلك الانحناءات الخافة المقتضبة . وماذا يعنينا أن جوهر شاد قد حصلت لرفاتها الطاهرة على مقبرة جميلة فى هراه ، وأن شيراز جددت عمارة مسجدها الجامع فى القرن الرابع عشر ، وأن يزد واصفهان قد أضافتا محرابين فاخرين إلى مسجدى الجمعة فيهما ؟ الحق أننا بعيدون جداً ، من حيث الزمان والمكان والتفكير ، إلى حد لا نشعر معه بهذه العظمة والجلال ،

كما أن هؤلاء الذين يقيمون الصلاة فى تلك المساجد لا يستهويهم كثيراً اجتراءاتنا القوطية أوالصور الحسية فى عصر النهضة ، على أنه جدير بنا مع ذلك أن نتأثر ونحن وقوف على أطلال الجامع الأزرق فى تبريز (١٤٣٧ — ١٤٦٧) ونستعيد فى الذاكرة الفخامة التى اشتهر بها يوماً خزفه الأزرق المزخرف وزخرفته العربية الذهبية ، كما لا يغيب عن أذهاننا أن محمد الثانى وبايزيد الثانى شيدا فى القسطنطينية (١٤٦٣ — ١٤٩٧) مساجد تكاد تنافس عظمة كنيسة أياصوفيا . وقد اقتبس العثمانيون التصميمات البيزنطية والأبواب الفارسية والقباب الأرمينية وأفكار الزخرفة الصينية ، ليشكلوا مساجدهم فى بروسه ونيقيا ونيقوميديا وقونيه . لقد كان الفن الإسلامى لا يزال فى أوجه فى هندسة العمارة على الأقل .

وثمة فن واحد فحسب استطاع أن ينهض ويصمد أمام فن العمارة فى الإسلام : (كما صمد داود أمام جوليات — التوراة ، صموئيل الأول ، الإصحاح ١٧ : ٤ ، ٤٩) . فربما حظى الخطاطون ورسامو المنمنمات الصابرون الذين زخرفوا الكتب بأصغر وأدق زخارف وصور وخطوط رمزية بالفرشاة أو القلم — ربما حظى هؤلاء بنصيب من التكريم والإجلال أكثر مما حظى به بناة المساجد . وقد رسمت الصور الحائطية ، ولكن لم يبق من نتاج هذه الفترة شىء منها . ورسمت صور الأشخاص ، ولم يبق منها إلاالقليل . وامتثل العثمانيون علانية لتعاليم الكتاب المقدس والقرآن فى تحريم نحت الصور الشخصية ، ولكن محمد الثانى استقدم جنتيل بلينى من البندقية إلى القسطنطينية (١٤٨٠) ليرسم صورته ، وهى المعلقة الآن فى المتحف الوطنى فى لندن . كما توجد نسخ من صورة زعموا أنها لتيمور . على أن المغول الذين اعتنقوا الإسلام ، بصفة عامة ، آثروا تقاليد الفن الصينى على المحظورات التى جاءت بها الشريعة الإسلامية . فأدخلوا من

الصين على الزخرفة الفارسية التنين والعنقاء وأشكال السحاب وهالات القداسة والوجوه الشبيهة بالأقمار ، وزاوجوا بينها ، بطريقة خلاقة ، وبين الأساليب الفارسية فى اللون الشفاف والخط الخالص . وكانت الأساليب المختلطة متماثلة إلى حد بعيد ، فإن رسامى المنمنمات الصينيين والفرس ، على حد سواء ، رسموا لطبقة الأرستقراطيين الذين يحتمل أن ذوقهم كان رفيعاً جداً ، والأرجح أنهم حاولوا إرضاء الخيال والحواس أكثر من تمثيل الأشكال الموضوعية .

وكانت المراكز العظمى للزخرفة الإسلامية فى هذا العصر هى تبريز وشيراز وهراة . ويحتمل أنه قد جاء من تبريز فى عهد الأيلخانات ، الورقات الخمس والخمسون من كتاب « شاه نامه » ، (كتاب الملوك للفردوسى) — وهى من عمل رسامين مختلفين فى القرن الرابع عشر . ولكن رسم المنمنمات الفارسية بلغ الذروة فى هراة على عهد التيموريين ، وقد استخدم شاه رخ طائفة كبيرة من الفنانين ، وأسس ابنه بيسنقر ميرزا كلية خاصة بالخط والمنمنمات . ومن مدرسة هراة هذه جاءت الشاهنامة (١٤٢٩) وهى معجزة اللون البراق والجمال الدافق ، وهى الآن محفوظة بعناية فى مكتبة قصر جلستان فى طهران ، وتكاد لا يمسها أحد إلا إجلالا وتعظيماً . إن رؤيتها لأول مرة أشبه شىء باكتشاف قصائد كيتس (الشاعر الإنجليزى Keats) .

وكان كمال الدين بهزاد ، هو كيتس الزخرفة الحقيقى أو رافائيل الشرق : لقد عركته تجارب الحياة ، وويلات الحرب وتقلباتها ، فعكس هذا كله بالفن ، ولد بهزاد فى هراة حوالى سنة ١٤٤٠ ، ودرس فى تبريز ، ثم عاد إلى هراة ليرسم للسلطان حسين بن بيقره ، ووزيره المتعدد الجوانب (شاعر وموسيقى ومصور) مير على شيرنوائى . وعندما أصبحت هراة مركزاً للأوزبك ولحملات الصفويين ، قصد بهزاد ثانية إلى تبريز . وكان من بين أوائل المصورين الفرس الذين وقعوا على أعمالهم ، ولكن بقايا فنه قليلة فعلا

ومتباعدة . وثمة منمنمتان فى دار الكتب المصرية بالقاهرة تمثلان « بستان سعدى » وتعرضان حلقة لبعض رجال الدين يتدارسون فيها أسراره . وتحمل المخطوطة تاريخ سنة ١٤٨٩ ، أما العبارة المكتوبة فى نهايتها فتقول « رسمها العبد المذنب بهزاد » . ويضم متحف فرير فى واشنجطن صورة « شاب يرسم » ، وهى نسخة منقولة عن جنتيل بلليني وقعها بهزاد ، وفيها تكشف الأنامل الرقيقة عن الفنانين الرسام والمرسوم كليهما . وليس من المحقق كثيراً أنه هو الذى رسم المنمنمات الموجودة فى المتحف البريطانى ؛ وهى نسخة مخطوطة « المنظومات الخمس » للشاعر نظامى ، وفى نفس الخزانة توجد مخطوطة « ظفر نامه » أى سجل انتصارات تيمور .

ومن العسير أن تفسر هذه البقايا شهرة بهزاد المنقطعة النظير . إنها تنم على إدراك حسى للأشخاص والأشياء ، وعلى حرارة اللون ومداه ، وعلى حيوية فى التنفيذ تشملها جميعاً دقة رقيقة فى التخطيط . ولكنها لا تكاد توازن بالمنمنمات التى رسمت لدوق برى Berry ، قبل ذلك بقرن من الزمان تقريباً ، ومع ذلك فإن معاصرى بهزاد أحسوا بأنه كان قد أحدث انقلاباً فى الزخرفة بنماذجه الأصيلة فى التأليف ، ومناظره الطبيعية الزاهية وصور شخوصه المفصلة بعناية والتى تكاد تقفز إلى الحياة . وعنه قال المؤرخ الفارسى خواندمير الذى كان يقارب الخمسين من العمر حين مات بهزاد (حوالى ١٥٢٣) ، ربما بدافع التحيز لصداقته له : « إن براعته فى التصوير والتصميم قد طمست ذكرى غيره من مصورى العالم . إن أنامله الموهوبة بمزايا خارقة محت صور سائر الفنانين من بنى آدم »(٤٨) : وجدير بنا أن يهذب من ثقتنا أن نفكر ملياً فى أن هذا قد كتب قبل أن يرسم ليوناردو دافنسى « العشاء الأخير » ويرسم ميكلأنجلو « سقف كنيسة سستين » ، وقبل أن يرسم رافائيل « غرف الفاتيكان » . ومن المحتمل أن خواندمير لم يكن قد سمع بأسمائهم قط .

وانحط فن الخزف فى هذه الحقبة عما كان عليه فى عهد سلاجقة الرى وكاشان . أما مدينة الرى فقد تركتها الزلازل وغارات المغول أثراً بعد عين ، وأما كاشان فقد خصصت معظم أفرانها لصناعة الطوب ؛ على أن مراكز جديدة للخزف قامت فى سلطانية ويزد وتبريز وهراة وأصفهان وشيراز وسمرقند ، وكان الخزف المزخرف الفسيفسائى آنذاك هو الإنتاج المفضل : فصنعت بلاطات صغيرة من الخزف ، رسمت كل منها بلون معدنى واحد ، وطليت فأصبحت ذات بريق يتطلب أشد العناية لبقائه . وحين كان حماة الفن فى يسر وثراء استخدم البناءون الفرس هذا الخزف المزخرف ، لا للمحاريب والزخرفة فحسب ، بل استخدموه كذلك فى تغطية سطوح كبيرة من أبواب المساجد أو جدرانها ، وثمة نموذج أخاذ فى محراب مسجد بابا قاسم (حوالى ١٣٥٤) فى متحف متروبوليتان للفن فى نيويورك .

واحتفظ صناع المعادن فى الإسلام بمهارتهم ، فصنعوا الأبواب والثريات البرونزية للمساجد من بخارى إلى المغرب (مراكش) ، ولو أن شيئاً منها لم يضـــارع تماماً « أبواب الجنة » التى صنعها جيبرتى Ghiberti (١٤٠١ — ١٤٥٢) فى بيت المعمودية بفلورنسه ، وقد صنعوا أحسن أسلحة العصر — الخوذات المخروطية الشكل لكى تجعل الضربات الهاوية تنحرف ، والدروع من الحديد البراق مطعمة بالفضة والذهب والسيوف المرصعة بالنقوش الذهبية أو الأزهار المصنوعة من الذهب . كما صنعوا النقود الجميلة ، كما صنعوا الرسوم النافرة أو الميداليات الكبيرة مثل تلك التى عليها صورة جانبية لمحمد الفاتح البدين القصير ، وشمعدانات برونزية كبيرة حفر عليها الخط الكوفى الفاخر أو الأشكال الزهرية ، كما صبر وزينوا المباخر ومحفظة الكتابة والمرايا وعلب الجواهر والمجمرات والقوارير والأباريق والطشوت والصوانى ، بل حتى المقص والفرجار كانوا يزينونها بالنقوش بطريقة فنية . ومثل هذا التفوق مشهود به للفنانين والصنا المهرة

المسلمين الذين اشتغلوا بقطع الجواهر أو المعادن النفيسة ، أو الذين اشتغلوا بقطع الجواهر أو المعادن النفيسة ؛ أو الذين حفروا العاج أو الخشب أو رصعوه . والنسيج الباقى للآن عبارة عن قطع أو أجزاء صغيرة . ولكن المنمنمات تصور لنا تشكيلة واسعة من المنتجات الجميلة من الكتان الرفيع فى القاهرة إلى الخيام الحريرية فى سمرقند . والحق أن الذى أثار بسرعة حسد أوربا ، هم أولئك المزخرفون الذين صمموا الأنماط والطرز المعقدة ولكنها مع ذلك منطقية : القماش المقصب (البروكار) والقطيفة والحرائر ، للمغول والتيموريين ، بل حتى البسط التركية . وفيما يسمونه الفنون الصغرى قاد الإسلام العالم .

٨ ــ الفكر الإسلامى

أفلت شمس العلم والفلسفة وضاع مجدهما ، لأن الدين كان قد كسب معركته ضدهما ، فى الوقت الذى كان فيه يتراجع ويستسلم فى الغرب المراهق . وكان الذين يحظون بالشرف الرفيع هم رجال الدين والدراويش والنساك والأولياء ، أما العلماء فقد قصدوا إلى استيعاب نتائج أبحاث أسلافهم ، أكثر مما قصدوا إلى إمعان النظر فى الطبيعة أو من جديد ، وكان خر تقدم أو محاولة نشيطة فى الفلك الإسلامى فى سمرقند حين صاغ راصد النجوم فى مرصد أولوج بك فى سنة ١٤٣٧ الجداول الفلكية التى حظيت بأعظم التقدير فى أوربا حتى القرن الثامن عشر . وقاد ملاح عربى مزود بجداول وخريطة عربية ، فاسكودا جاما من أفريقية إلى الهند فى المرحلة التاريخية التى وضعت نهاية لسيطرة الإسلام الاقتصادية(٤٩) .

وفى الجغرافيا أنجب المسلمون شخصية عظيمة فذة فى هذا العصر . ففى سنة ١٣٠٤ ولد فى طنجة محمد أبو عبد الله بن بطوطة الذى طاف بدار الإسلام ــ العالم الإسلامى ــ لمدة أربع وعشرين سنة ثم عاد إلى المغرب

ليقضى نحبه فى فاس . وإن يوميات هذا الرحالة لتوحى بمدى انتشار الإسلام الواسع ، فهو يذهب إلى أنه قطع فى رحلته ٧٥,٠٠٠ ميل (أكثر من أى إنسان آخر قبل عصر البخار) . كما زعم أنه رأى غرناطة وشمال أفريقية وتمبكتو ومصر والشرقين الأدنى والأوسط وروسيا والهند وسيلان والصين . وأنه زار كل حاكم مسلم فى هذا العصر . وفى كل مدينة كان يقدم احتراماته أولا إلى العلماء ورجال الدين ثم بعد ذلك إلى الملوك والحكام ؛ وإنا لنرى النزعة الإقليمية عندنا منعكسة عليه حين يعدد « الملوك السبعة العظام فى العالم » . وكلهم مسلمون فيما عدا واحدا صينياً(٥٠) . إنه لايصف الأشخاص والأماكن فحسب ، بل يصف كذلك حيوان كل منطقة ونباتها والمعادن والأطعمة والأشربة والأسعار فى مختلف البلاد . وكذلك المناخ ومظاهر الطبيعة والعادات . والأخلاق والطقوس الدينية والمعتقدات ، وهو يتحدث بكل إجلال عن السيد المسيح والسيدة العذراء ؛ ولكنه يشعر ببعض الارتياح والرضا حين يشير إلى أن « كل حاج يزور كنيسة القيامة فى القدس يدفع رسوماً للمسلمين »(٥١) . وعندما عاد إلى فارس روى كل تجاربه ومشاهداته ، فأنزلة سامعوه منزلة القصاص . ولكن الوزير أمر أحد سكرتيريه بتدوين ما أملاه ابن بطوطه من مذكرات . وضاع الكتاب وكاد أن ينسى . حتى وجد أخيرا أثناء الاحتلال الفرنسى الحديث للجزائر .

وفيما بين سنتى ١٢٥٠ ، ١٣٥٠ كان أعظم الكتاب إنتاجاً فى التاريخ الطبيعى من المسلمين . فكتب محمد الدميرى بالقاهرة كتاباً فى علم الحيوان يقع فى ١٥٠٠ صفحة وكان الطب لا يزال قلعة سامية ، (أى علماً برز فيه الجنس السامى) . فكانت المستشفيات كثيرة فى العالم الإسلامى . وشرح طبيب من دمشق هو علاء الدين بن النفيس الدورة الدموية الرئوية (١٢٦٠) قبل سرفيتس (طبيب أسبانى : القرن ١٦) بنحو ٢٧٠سنة ،

ونسب طبيب من غرناطة هو ابن الخطيب « الموت الأسود » إلى مرض معد ، وأشار بالحجر الصحى للمصابين — معارضاً بذلك قول رجال الدين بأنه انتقام إلهى من خطايا الإنسان وآثامه . واشتمل بحثه « فى الطاعون » (حوالى ١٣٦٠ على هرطقة مشهورة : « يجب أن يكون من القواعد المقررة لدينا أن أى برهان مأخوذ من تقاليد « أتباع محمد » ينبغى أن يخضع للتعديل إذا تعارض تعارضاً واضحاً صريحاً مع الدليل الذى تأتى به الحواس(٥٣) .

وكان العلماء والمؤرخون كثيرين مثل الشعراء . وكانوا يكتبون باللغة العربية وهى لغة الاسبرانتو فى العالم الإسلامى ، كما جمعوا فى كثير من الأحوال بين الدرس والتأليف وبين النشاط السياسى والإدارى . ومثال ذلك أبو الفداء الدمشقى ، فقد اشترك فى اثنتى عشرة حملة حربية ؛ وكان وزيرا للملك الناصر فى القاهرة ، ثم عاد إلى سوريا حاكماً على حماه ، وجمع مكتبة ضخمة ، وألف مجموعة من الكتب تعتبر قمة منيلاتها فى هاتيك الأيام . وفاق بحثه فى الجغرافيا « تقويم البلدان » فى اتساع مداه ، أى مؤلف أوربى من نوعه فى عصره ؛ وقد قدر فيه أن المـــاء يغطى ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وأشار إلى أن السائح حول العالم يكسب أو يفقد يوماً فى مسيره غرباً أو شرقاً ؛ وكان كتابه « المختصر فى أخبار البشر » هو التاريخ الإسلامى الأساسى المعروف لدى الغرب .

ولكن الاسم اللامع فى كتابة التاريخ فى القرن الرابع عشر هو عبد الرحمن ابن خلدون ؛ فهنا نجد رجلا ذا وزن وقيمة حتى فى أعين أهل الغرب رجلا عركته التجارب والسياحة وفن الحكم الذى مارسه عملياً ، وهو مع ذلك حسن الاطلاع على الفن والأدب والعلوم والفلسفة فى عصره ، يكاد يحيط بالجوانب الإسلامية فى هذا كله فى « تاريخ للعالم » . وإن مولد مثل هذا الرجل فى تونس (١٣٣٢) وارتفاع مكانته هناك ؛ ليوحيان إلينا

بأن ثقافة شمالى أفريقية لم تكن مجرد صدى للإسلام فى آسيا ، بل كان لها طابع وحيوية خاصتان بها ، وتقول سيرة حياة ابن خلدون : « لم أزل منذ نشأت وناهزت مكباً على تحصيل العلم ، حريصاً على اقتناء الفضائل ، متنقلا بين دروس العلم وحلقاته ... » .

وقضى الموت الأسود على أبويه وعلى كثير من المعلمين ، ولكنه تابع دراسته « إلى أن شددت بعض الشىء »(٥٤) . وهذا ضرب من الوهم يتميز به الشباب . وعين فى العشرين من عمره سكرتيراً لسلطان تونس ، ثم لسلطان فاس فى الرابعة والعشرين ، وفى سن الخامسة والعشرين دخل السجن . ثم انتقل إلى غرناطة وأرسل سفيراً إلها لدى بطرس القاسى فى أشبيلية . وعندما عاد إلى أفريقية أصبح الوزير الأول للأمير أبى عبد الله فى « بجاية » ولكن كان لزماً عليه أن يفر لينجو بنفسه عندما خلع سيده وقتل . وأرسلته مدينة تلمسان فى سنة ١٣٧٠ مبعوثاً لها إلى غرناطة ، ولكن اعتقله فى الطريق إليها أحد أمراء المغرب العربى ، وبقى ابن خلدون أربع سنوات فى خدمة هذا الأمير ثم لجأ إلى حصن بالقرب من وهران ، وهنـــاك (١٣٧٧) كتب « مقدمة تاريخه » وهى مقدمة « لتاريخ العمران » . ولما كان فى حاجة إلى كتب أكثر مما استطاعت وهران أن تمده بها فإنه عاد إلى تونس ، ولكن هناك تألب عليه أعداء من ذوى النفوذ فيها ، فانتقل إلى القاهرة (١٣٨٤) ، وكانت شهرته كعالم قد طبقت الآفاق ، وازدحم حوله الطلاب حين كان يحاضر فى الجامع الأزهر ، وأجرى عليه السلطان برقوق راتباً « كما كانت عادته مع العلماء »(٥٥) . وعين قاضياً للمالكية ، فطبق القوانين بصرامة شديدة وأغلق الملاهى مما أدى إلى هجوه وعزله من منصبه ، فاعتزل الحياة العامة ثانية . ثم أعيد إلى منصب قاضى القضاة ، وصحب السلطان ناصر الدين فرج فى حملة ضد تيمور ، وهزمت القوات المصرية ، فالتمس ابن خلدون ملجأ له فى دمشـــق ، وحاصرها تيمور ،

وكان مؤرخنا آنذاك فى سن الشيخوخة ، فرأس وفداً يلتمس من التترى المنتصر شروطاً لينة رفيقة وأحضر — مثل أى مؤرخ آخر ، مخطوطة تاريخه معه ، وقرأ على تيمور الجزء الخاص به وسأله أن يصحح له معلوماته . وربما كان قد تعمد مراجعة الصفحات قبل ذلك لهذا الغرض نفســه . ونجحت الخطــة ، وأطلق تيمور سراحه ، وما لبث أن عاد ابن خلدون مرة أخرى قاضياً للقضاة فى القاهرة ، ومات وهو فى هذا المنصب ، فى سن الرابعة والسبعين (١٤٠٦) .

وألف ابن خلدون وسط هذه الحياة القلقة موجزاً عن فلسفة ابن رشد . وأبحاثاً فى المنطق والرياضيات ، ومقدمة ابن خلدون ، وتاريخ البربر ، وشعوب الشرق ، والكتب الثلاثة الأخيرة فقط هى الباقية . وهى تشكل فى مجموعها « تاريخ العالم » (كتاب العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ، فى أيام العرب والعجم والبربر ، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر) . والمقدمة واحدة من الروائع فى الأدب الإسلامى وفى فلسفة التاريخ . فهى إنتاج « حديث » إلى درجة مذهلة لعقلية عاشت فى العصور الوسطى . ويرى ابن خلدون أن التاريخ « فرع هام من الفلسفة »(٥٦) ، وينظر نظرة عريضة واسعة إلى مهمة المؤرخ :

« اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الإنسانى الذى هو عمران العــالم ، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال ، مثل التوحش والتأنس والعصبيات ، وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال »(٥٧) . (ص ٣٣ من مقدمة ابن خلدون طبعة كتاب الشعب — القاهرة ١٩٦٩) .

واعتقاداً منه بأنه أول من كتب التاريخ بهذه الطريقة ، فإنه يسأل القارئ الصفح عن أية أخطاء لم يكن فى الإمكان تجنبها فيقول :

« وأنا من بعدها موقن بالقصور بين أهل العصور ، معترف بالعجز عن المضاء فى هذا الفضاء ، راغب من أهل اليد البيضاء ، والمعارف المتسعة الفضاء ، فى النظر بعين الانتقاد ، لا بعين الارتضاء ، والتغمد لما يعثرون عليه بالإصلاح والإغضاء . فالبضاعة بين أهل العلم مزجاة والاعتراف من اللوم منجاة ، والحسنى من الإخوان مرتجاة . والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وهو حسبى ونعم الوكيل »(٥٨) . (المصدر السابق ، ص ١٠) .

ثم هو يأمل فى أن يكون كتابه هذا عوناً على الأيام الحالكة التى تنبأ بها :

« وإذا تبدلت الأحوال جملة فكأنما تبدل الخلق من أصله ، وتحول العالم بأسره ، وكأنه خلق جديد ونشأه مستأنفة ، وعالم محدث . فاحتاج لهذا العهد من يدون أحوال الخليقة والآفاق وأجيالها ، والعوائد والنحل لأهلها ، ويقفو مسلك المسعودى لعصره ، ليكون أصلا يقتدى به من يأتى من المؤرخين من بعده(٥٩) » . (المصدر السابق ، ص ٣١) .

ويخصص ابن خلدون بعض صفحات يملؤها الزهو والفخر ، يشير فيها إلى أخطاء بعض المؤرخين . ويحس بأنهم ضلوا فى مجرد ترتيب الأحداث ترتيباً زمنياً ، وقل أن ارتفعوا إلى مستوى إيضاح الأسباب والنتائج . وتقبلوا الخرافة بمثل الارتياح الذى تقبلوا به الحقيقة تقريباً ، وقدموا إحصاءات مبالغ فيها ، وفسروا أشياء كثيرة جداً بقوى خارقة

للطبيعة ، أما بالنسبة له ، فهو يعتزم أن يعول كلية على العوامل الطبيعية فى تفسير الحوادث . ولسوف يحكم على ما يكتبه المؤرخون فى ضوء التجارب الراهنة للجنس البشرى ، ويرفض أى حدث مزعوم يعتبر الآن مستحيل الوقوع . فإن التجربة يجب أن تفصل فى صحة التقاليد أو فسادها(٦٠) . وكان منهجه فى « المقدمة » هو أن يعالج أولا فلسفة التاريخ ، ثم يتناول أشغال الناس ومهنهم وبراعاتهم ، وأخيراً يعرض لتاريخ العلوم والفنون ، وهو يدون فى مجلدات متعاقبة التاريخ السياسى لمختلف الأمم ، الواحدة تلو الأخرى ، متعمداً التضحية بوحدة الزمان فى سبيل وحدة المكان . ويقول ابن خلدون إن الموضـــوع الحقيق للتاريخ هو الحضارة ، كيف تنشأ ، وكيف يحتفظ بها وكيف تنمّى الآداب والعلوم والفنون ، ولماذا تبلى(٦١) ، فالإمبراطوريات — مثل الأفراد — لها حياة ولها مسارات خاصة بها . إنها تنشأ وتنضج وتضمحل(٦٢) فما هى أسباب هذا التعاقب ؟

والأحول الأساسية فى هـــذا التعاقب هى أحوال جغرافية . ذلك أن للمناخ تأثيراً عاماً ولكنه أساسى . فالشمال البارد ينتج آخر الأمر ، حتى فى أناس أصلهم من الجنوب ، جلداً أبيض اللون وشعرا خفيفاً ، وعيوناً زرقاء وميلا إلى الجدية . أما الأقاليم المدارية فتنتهى بمرور الزمن إلى الجلد الأسمر والشعر الأسود ، « وتغلب الروح الحيوانية » ، وخفة فى العقل والمرح وسرعة التنقل بين المسرات مما يؤدى إلى الغناء والرقص(٦٣) . ويؤثر الطعام فى الخلق . فالغذاء الثقيل المكون من اللحوم والتوابل والحبوب بسبب بلادة الجسم والعقل ، والاستسلام السريع للقحط أو العدوى . أما الغذاء الخفيف ، مثل هذا الذى تتناوله شعوب الصحراء ، فإنه يساعد على رشاقة الأجسام وصحتها ، وعلى سلامة العقول . وعلى مقاومة المرض(٦٤) . وليس ثمة تفاوت فطرى فى القدرة الكامنة بين شعوب الأرض : فإن تقدمهم

أو تأخرهم تحدده الأحوال الجغرافية ، ويمكن تغييره بتغيير هذه الأحوال ، أو بالهجرة إلى مكان آخر(٦٥) .

أما الأحوال الاقتصادية فهى أقل قوة فقط من الجغرافية . ويقسم ابن خلدون المجتمعات إلى رحل ومقيمة أو مستقرة تبعاً لوسائل الحصول على القوت ، ويعزو معظم الحروب إلى الرغبة فى الحصول على مصدر للغذاء أكثر وفرة . فالقبائل الرحـــل لابد أن تغزو إن عاجـــلا أو آجلا ، الجماعات المستقرة المتوطنة ، لأن هؤلاء الرحل مرغمون بحكم ظروف حياتهم على التمسك بالصفات الحربية مثل الشجاعة وقوة الاحتمال والجلد والتماسك . وقد يدمر الرحل حضارة ، ولكنهم لا يستطيعون إقامة حضارة قط . فإن الشعب المقهور يمتص دماء الرحل وثقافتهم . ولا يستثنى من ذلك العرب الرحل . والحرب أمر طبيعى طالما أن الشعب غير قانع أبدا لأمد طويل بما لديه من غذاء . إن الحرب هى التى تنشئ السلطان السياسى وتجدده ، ومن ثم كانت الملكية هى الشكل المألوف للحكومة . وقد سادت فى كل حقب التاريخ تقريباً(٦٦) . وقد تنشئ السياسة المالية مجتمعاً أو تهدمه ، فإن فرض الضرائب الباهظة أو دخول الحكومة إلى مجـــال الإنتاج والتوزيع ، يمكن أن يخمد أو يقضى على الحوافز والمغامرة والمنافسة ، ويقتل البقرة الحلوب التى تدر الدخل(٦٧) . ومن جهة أخرى فإن الإفراط فى تركيز الثروة قد يمزق المجتمع إرباً بإذكاء نار الثورة(٦٨) .

وثمة قوى معنوية فى التاريخ : وفى تماسك الناس تدعيم للإمبراطوريات ، وأفضل وسيلة لتأمين هذا هو غرس عقيدة واحدة وممارستها . ويتفق ابن خلدون مع البابوات ومحاكم التفتيش والمصلحين الدينيين البروتستانت على عقيدة واحدة .

وذلك لأن الملك إنما يحصل بالتغلب . والتغلب إنما يكون

بالعصبية ، واتفاق الأهواء على المطالبة ، وجمع القلوب وتأليفها إنما يكون بمعونة من الله فى إقامة دينه . قال تعالى : لو أنفقت ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم . وسره أن القلوب إذا تداعت إلى أهواء الباطل والميل إلى الدنيا ، حصل التنافس وفشا الخلاف . وإذا انصرفت إلى الحق ورفضت الدنيا والباطل وأقبلت على الله اتحدت وجهتها ، فذهب التنافس وقل الخلاف ، وحسن التعاون والتعاضد ، واتسع نطاق الكلمة لذلك ، فعظمت الدولة ، كما نبين لك بعد إن شاء الله سبحانه وتعالى وبالله التوفيق ، لا رب سواه[٦٩] . (المصدر السابق ص ١٤٢) .

وليس الدين عوناً فى الحرب فحسب ، بل إنه كذلك خير عون على النظام فى المجتمع ، وعلى اطمئنان النفس وهدوء البال عند الناس فرادى ، ولا يتأتى هذا إلا بعقيدة دينية تتقرر بلا مساءلة ولا جدال . إن الفلاسفة ليبتدعون مئات الأساليب ، ولكن واحداً منهم لم يقع على بديل للدين ، كمرشد ومصدر إلهام للبشر فى حياتهم « وما دام أن الإنسان لا يستطيع فهم الدنيا ، فإن من الخير له أن يتقبل العقيدة التى ينقلها إليه مشرع ملهم تلقى الوحى ، يعرف ما فيه خيرنا ونفعنا أكثر مما نعرف نحن ، ويشرع لنا ما ينبغى علينا أن نؤمن به وما ينبغى علينا أن نفعل[٧٠] ، وبعد هذه المقدمة الرشيدة ينتقل مؤرخنا الفياسوف إلى تفسير للتاريخ قائم على المذهب الطبيعى .

إن كل إمبراطورية تمر بأطوار متعاقبة :

١ — تحط قبيلة متنقلة منتصرة رحالها لتنعم بما أفاء الله به عليها من فتح رقعة من الأرض أو ولاية . « إن أقل الأقوام حضارة أعظمها فتوحاً »[٧١] .

٢ — وكلما ازدادت العلاقات الاجتماعية تعقيداً ، اقتضى الأمر سلطة أكثر تركيزاً بغية المحافظة على النظام ، فيصبح الرئيس القبلى ملكاً .

٣ — وفى هذا النظام المستتب ، تنمو الثروة ، وتتصاعد المدن ، ويرتقى التعليم والآداب ، وتجد الفنون من يرعاها ، وتبزغ شمس العلوم والفلسفة . ويؤذن التوسع فى سكنى المدن والحياة الناعمة بفضل الثراء ، ببداية الاضمحلال :

٤ — إن المجتمع الذى أثرى يبدأ فى إيثار المسرة والترف والدعة على العمل أو المغامرة أو الحرب ، ويفقد الدين سيطرته على خيال الإنسان وعقيدته ، وتنحط الأخلاق والسلوك ، وينتشر الشذوذ الجنسى ، كما تنحط الفضائل والأعمال الحربية ، ومن ثم يكون الاتجاه إلى استخدام الجنود المرتزقة للدفاع عن المجتمع ، ومثل هؤلاء تعوزهم حماسة الروح الوطنية والعقيدة الدينية ، وكأن الثروة التى لا يحسن الدفاع عنها تغرى بمهاجمتها ملايين الجياع المضطربين فيما وراء الحدود .

٥ — إن الحملات الخارجية أو الدسائس الداخلية ، أو كلتيهما معاً ، تسقط الدولة(٧٢) . تلك كانت دورة الزمن بالنسبة لروما ، والمرابطين والموحدين فى أسبانيا ، والإسلام فى مصر وسوريا والعراق وفارس ، وهى تجرى دائماً على هذا المنوال(٧٣) .

تلك هى قلة قليلة من آلاف الأفكار التى جعلت من « مقدمة ابن خلدون » أشهر نتاج فلسفى فى القرن الذى عاش فيه . وكان لابن خلدون أفكاره الخاصة به فى كل شىء تقريباً ، فيما عدا الدين الذى يرى أنه ليس من الحكمة أن يكون فيه مبتكراً . وعلى حين أنجز عملا ضخماً من أمهات الكتب فى الفلسفة يصرح بأن الفلسفة خطيرة ، وينصح قراءه بأن يتركوها وشأنها(٧٤) ، ويحتمل أنه قصد ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) واللاهوت ، أكثر مما قصد

الفاسفة بمعناها الأوسع ، كمحاولة لرؤية أحوال الإنسان من وجهة نظر أكثر شمولا . إنه يتحدث فى بعض الأحيان كما تتحدث أبسط امرأة عجوز فى السوق ، فيسلم بالمعجزات والسحر ، و « العين الشريرة » ، والخواص الغامضة لحروف الهجاء ، ونبوءات الأحلام ، والأمعاء ، أو طيران الطيور(٧٥) . وهو مع ذلك يعجب بالعلوم ، ويقر بتفوق اليونان على المسلمين فى هذا المضمار ، ويرثى لتدهور الدراسات العلمية فى الإسلام(٧٦) . ويستنكر الكيمياء القديمة — ويعترف بشىء من الإيمان بالفلك(٧٧) .

وثمة سقطات معينة أخرى يجدر إيرادها . ذلك أنه على الرغم من ابن خلدون كان رحب الأفق ، قدر رحابة الإسلام ، إلا أنه شاطر الإسلام كثيراً من تحديداته ، فلم يجد فى مجلدات مقدمته الثلاثة إلا سبع صفحات للكلام عن المسيحية . ولم يورد ذكر اليونان والرومان وأوربا فى العصور الوسطى إلا عرضاً . وعندما دون تاريخ شمال أفريقية ومصر الإسلامية والشرقين الأدنى والأوسط ، اعتقد بذلك أنه قد روى « تاريخ الشعوب(٧٨). وهو فى بعض الأحيان جاهل جهلا معيباً يؤاخذ عليه ، فيذهب إلى أن أرسطو كان يعلم من رواق وسقراط من دن(٧٩) . إن كتابته الفعلية فى التاريخ تتخلف كثيراً عن مقدمته النظرية ، ومجلداته عن البربر والشرق عبارة عن سجل جاف موحش لأنساب الأسرات وتسلسلها ، ودسائس القصر ، والحروب الصغيرة . ومن الواضح أنه قصد أن تكون هذه المجلدات تاريخاً سياسياً فحسب ، وكتب المقدمة بوصفها تاريخاً للثقافة ، ولو أنها على الأرجح نظرة عامة فى الثقافة .

ولكى نستعيد تقديرنا وإجلالنا لابن خلدون ، حرى بنا أن نتساءل فقط عن أى عمل مسيحى فلسفى فى القرن الرابع عشر يمكن أن يضارع « المقدمة » . وربما كان بعض المؤلفين القدامى قد تناولوا جانباً من هذا الميدان الذى طرقه ابن خلدون . وكان أحد أبناء جلدته ، وهو المسعودى (المتوفى ٩٥٦) قد

عالج فى كتاب مفقود الآن ، تأثير الدين والاقتصاد والسلوك والبيئة على شخصية الشعب وقوانينه ، كما تناول أسباب الاضمحلال السياسى(٨٠) . ومهما يكن من أمر فقد أحس ابن خلدون ، وله بعض الحق ، أنه خالق علم الاجتماع . إننا لا نستطيع ، فى أى أدب كان قبل القرن الثامن عشر ، العثور على فلسفة للتاريخ ، أو على منهج لعلم الاجتماع ، يمكن أن يبارى فى قوته ومداه ودقة تحليله منهج ابن خلدون . إن رائد فلسفة التاريخ فى عصرنا قد حكم على مقدمة ابن خلدون بأنها أعظم تأليف من نوعه أنتجه عقل بعد فى أى زمان أو مكان(٨١) . وقد يقارن به كتاب هربرت سبنسر « مبادئ علم الاجتماع » ١٨٧٦ — ١٨٩٦ ، ولكن كان لسبنسر معاونون كثيرون . إننا على أية حال قد نتفق مع مؤلف ممتاز مشهور فى تاريخ العلوم « على أن أهم مؤلف تاريخى فى العصور الوسطى »(٨٢) هو مقدمة ابن خلدون .